فاروق خورشيد

المثلث الدامي

قصص قصيرة

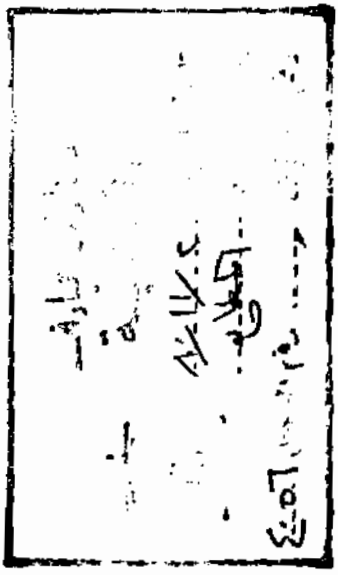

دار المعارف

تصميم الغلاف : أحمد أبو عمر

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى أخى القاص الفنان
الدكتور / عبد الغفار مكاوى
صاحب (البلد البعيد)

فاروق خورشيد

من وضع كتاباً فقد استهدف ،
فإن أجاد فقد استشرف ،
وإن أساء فقد استقذف .

عبد الله بن المقفع

المثلث الدامى

هذا زمن الحق الضائع
لا يعرف فيه مقتول من قاتله ومتى قتله
ورءوس الناس على جثث الحيوانات
ورءوس الحيوانات على جثث الناس
فتحسس رأسك
فتحسس رأسك

صلاح عبد الصبور

مربع الضوء أحدث حين الانعكاس مكعباً ، وأنا أشكل المربعات ، أحاول أن أجعل منها مكعبات ، والعبث لا طائل من ورائه ، فياكم عرفت أن لا طائل من العبث . . أجل فلا طائل أبداً من العبث ، ولا منطق ، ولا شيء ، إنها دوائر دوائر ، تدور حول نفسها ومن حيث تنبع تنتهى ومن حيث تبدأ تضع لوجودها نقطة الختام .

وأنا ربعت الكلمات ، فهم قد علمونى أن الكلمات ينبغى أن تربع وأن تكون مربعة ، فمن غير تربيع الكلمات لا يصح أن تجلس فى مجمع أصحاب الكلمات المربعة ، وفى زماننا لم يكن هناك مكان إلا لأصحاب الكلمات المربعة ، ولكنى برغم هذا أحاول أن أتمرد أو أثور ، أن أجعل من المربعات مكعبات ، فكنت أسقط دائماً فى فخ الدوائر الدوامة التى لا تنتهى . . فأدور وأدور ولا تخرج من

يدى مكعبات ، ولا أستطيع أن أصل إلى شاطئ المربعات الآمن ، وأحس أننى ضائع ، أننى ضعت . . .

قال صديق الفنان . .

- هل جربت المثلث ؟

وهززت رأسى ، فعاد يقول . .

- هل عرفت المستطيل ؟

وعدت أهز رأسى حتى أوجعنى ، فليس أسوأ من المربع إلا المستطيل ، أما المثلث فهو شىء مجهول لى ، لم أعرفه قط .

وانغرس فى قلبى سن مركز الدائرة ، ومضى يدور وقلبى يوجعنى وينزف دماً . يتمزق الثقب الذى أحدثه سن مركز الدائرة ويتسع ويتهرأ ، ودمى ينزف والدمع عند عينى تحجر لا يريد أن يظهر أمام الناس علامة ضعف وتعاسة وذلة . . نعم حيرتنى الدائرة وأذلتنى ومزقت قلبى وجوفته فلم يعد يردد إلا الأصداء ، تدور فيه الكلمة فيضمها ويردها من جديد فى دوائر ، ودوائر . ودوائر ، والدوائر دائماً تولد دوائر جديدة ، تبدأ صغيرة محدودة ، ثم تكبر وتكبر وتمتد وتنتشر وتنتشر إلى أن تملأ العالم كله ، والعالم - لو عرفتَ - مجموعة من الدوائر التى بدأت صغيرة ثم اتسعت وكبرت ثم اتسعت وكبرت ، وستظل أبداً تتسع وتكبر ، ومركز الدائرة مغروس فى قلبى يدميه ويمزقه ويوسع ما أحدثه فيه من ثقب يدمى دمى النازف أبداً . .

وأهرع إلى المربعات ألتمس عندها الأمان ، والأمان دائماً عند المربعات الثابتة الوقورة ، ولكننى لا أستطيع . أكاد أفضل التمزق والضياع على الاستمرار

فى الوجود المربع ، فأنهار من جديد محاولاً التواجد فى المكعبات ، وأعجز من جديد ، ربما ليست عندى الأداة ، ربما كانت إمكاناتى قاصرة ورؤيتى محدودة وعواطفى باهتة مزيفة ، شخصية انطوائية لا قيمة لها . . وعاد صديقى الفنان يقول :

- إذا كنت تكره المستطيل فجرب المثلث . .

ولما كنت عاجزاً عن الوصول إلى المكعبات فقد قررت أن أحاول أن ألجأ إلى المثلث . . وهكذا رأيت نفسى أندفع دون تردد ودون تحرز نحو التجربة المخيفة ، تجربة أن تكون مثلثاً . .

وهل من الممكن أن يكون الإنسان مثلثاً ؟ الأمر يبدو سهلاً أوّلَ الأمر فالمثلث أقل من المربع ضلعاً ، وأقل من المكعب أكثر من هذا ، وليس فى المثلث عيوب المستطيل الخاضع الذليل ، كما أنه ليس فيه ضياع الدائرة الدوارة . ولكن ما يبدو سهلا أول الأمر يصبح شيئاً مستحيلاً حين الإقدام والتجربة . .

طرف المثلث انغرز فى رأسى ومزق جبهتى وقفز إلى مخى ورأسى ، سنه المدببة غارت وسط تلافيف مخى الكبيرة فقتل المتنبى وجرح أبا العلاء وأسال دم كامى وأصاب ديستوفيسكى بالكدمات المخيفة ، لم ينج منها إلا ديكنز فهو مربع وإلا موباسان فهو أكثر تربيعاً وإلا تولستوى فهو مستطيل وإلا مورافيا فهو مستطيل مثله مثل نجيب محفوظ فهو أكثر منه استطالة . .

وأوجعنى مخى ، أعنى عقلى ، أعنى ذهنى ، لا أدرى فهذه الكلمات كلها ولو أنها لا تعطى معنى واحداً ، إلا أن الناس تعودوا فى استعمالها أن يكونوا

مربعين ، ففقدت هذه الألفاظ معناها ، وأصبح من الممكن أن يستعمل الإنسان أى كلمة منها لتدل على معنى الكلمة الأخرى دون حرج أو خطأ أو تعاسة ، فهكذا علمنا عالم المربعين ، والمربعون هم سادة العالم كله ، هم الحكم وهم المقياس وهم الوجود . . وما يقوله المربعون يسرى فى الحياة مسرى الأحكام التى لاراد لها ولا معقب عليها أبداً . .

وانغرز ضلع المثلث الثانى فى وجدانى ، أين هو ، أنا لا أعرف ولكنى أحسست بمشاعرى كلها تهتز حين أصابتها صدمة ضلع المثلث ، فثارت وثارت واختلطت ولم أعد أدرك الفرق بين موزار وبيتهوفن ، ولا بين فيروز وأم كلثوم ، كل شىء اختلط ، شهرزاد وعاقصة وإيزيس وعشتروت ، كلهن فى واحدة والواحدة لا ملامح لها ، لها رأس غزالة وجسد عروس البحر وذيل لبؤة غاضبة وفم نسر جائع ، وأنياب ضبع أمامه قطيع من غنم ، وفحيح كوبرا رهيبة تلتف وتلتف ثم تبتلع كل شىء ، خطوة خطوة ، داخل جوفها الذى لا يمتلئ ، وصاح يونس من بطن الحوت وضاعت صيحته وسط فحيح الأفعى الرهيبة ، وصرخ إبراهيم فى التنور ، وأكل صرخاته فحيح النيران القاضية ، ونقيق الضفادع ، وصرير الصراصير فى ليلة ربيع ، وعواء القطط ، تموء ، تموء ، ثم تموء تموء ، والشتاء يرخى أذرعته فوق عالم بلا قر ولا دفء إلا دفء الفراش العطن الملىء بالروائح الملوثة . .

وامتدت الضلع الثالثة فحفرت وجودها فى وجودى الحى فأحسست بنفسى أهتز مرة ثم مرة ، ثم مرات وأموت ، وقال الطبيب . .

– سيفلس . .

وكانت المرة الأولى والوحيدة فى حياتى حتى الآن ، ولكن كل شىء لابد أن يكون له مرة أولى . . وخفت ، ملكنى الرعب فابتلعت الأقراص ، وتركت فخذى وذراعى لوخزات الإبر وعشت جباناً أخشى أن أواجه العالم . . أنت لا تفهم . .

– سيفلس . .

لم أكن بحاراً فى مدينة مباحة ولم أكن قرصاناً وسط غنيمة ، ولم أكن نخاساً أسوق قطيعاً ولم أكن كلباً يلعق غسالة . . ولكنى مثلهم جميعاً ضعت ، وبيع الضلع الثالثة من المثلث . رهيبة وحاسمة . . وقالت المرأة :

– المسألة أن تكون أو لا تكون . .

وقال صديقى :

– ما رأيك فى المثلث ؟

ونقط الصديد تملأ سروالى ، والعفن يقطر نفسه قطرات عند ضلعى المثلث الأخريين هناك عند منتهى المنتهك ، وهناك عند وجدانى الذى تعلم العهر وأرغم عليه . . وأكلنى موج البحر ، ودخلت بطن الحوت وصرخ يونس من جديد ، ولم يسمعه أحد ، وأخذت أجوس فى بطن الحوت ، لا دواء ، لا أحد يستطيع أن يرحم الآثم المنتهك المفضوح . . .

وصاحت الأصوات :

– اترك المثلث ، المثلث خطير وعبث لا أحد يستطيع أن يكون مثلثاً إلا الله ، والأنبياء والشهداء والقديسين . .

ولم أفهم ، أعنى لم أصدق ، بل ربما عنيت أننى لم أتراجع فضيت فى

طريق لأكون مثلثاً كاملا . .

واحتج المربعون وقالوا : هذا خائن ملعون . أما المستطيلون فاكتفوا بقرار ، ممنوع أن يكون هذا الكائن موجوداً ، ثم مضوا يتحسسون كروشهم ويتأملون شواربهم المفتولة فى المرآة ، ويسمعون أصواتهم المصقولة المسجلة فى أجهزة الراديو والتسجيل . . أما أصحاب الدوائر فقد رمقوا المسكين الذى هو أنا بنظرة سخرية كاملة مقيتة وداروا ثم داروا وعادوا يدورون وسط ألفاظ مبهمة لا معنى لها ولا مفهوم أكثر من أنهم لا يعترفون لى بوجود ، لا أنا ولا المثلث الذى أعيشه ولا المكعب الذى كنت أطمع أن أكونه . . وقال صديق الفنان :

– لا أمل فى المكعب ، نحن شعوب متخلفة يا صديق ، أملك الوحيد هو المثلث . .

وأطرقت برأسى يائساً تعيساً مطحوناً ، وسرت فى الطريق الذى لا عودة فيه ، طريق المثلث ، فقبل أن يكون هناك مكعب لابد أن يكون فى وجودنا مثلث ، والمكعب شىء حضارى لا نصل إليه لأننا عجزة ولأننا نخاف الموت ، ولأننا نخشى صوت صفارات الإنذار ودوى المدافع وأصوات الطائرات حين تخترق حاجز الصوت ، وشعر شكسبير حين تحاله أصوات فاهمة تبرز هاملت وماكبث والملك لير وتعاسة عطيل الأبدية . .

ورضيت بالمثلث إن كان يرضى بى . . ولكنه لم يرض . .

ذات صباح غابت شمسه واشتد برده ، وهطلت فيه السماء مطراً ، فامتزج طين الأرض بأحذية الرجال ، وامتلأت الشوارع المسفلتة ببرك من ماء آسن اسود ، وجدت نفسى مصلوباً ، رأسى إلى ضلع مثلث وكل ذراع إلى ضلع من

ضلعيه ، والناس يمرون تحت جثتى ذات الأعين الشاخصة ويمضغون اللبان ويقزقزون اللب الأبيض والأسمر ، ويأكلون الفشار والشبس ، ويتحدثون عن آخر الموديلات وهم يرمون فضلاتهم تحت أقدامى ثم يختلسون القبلات المحرمة ، ويتحدثون عن العلاوات المرتقبة والضرائب الجديدة ومقالات افتتاحية فى جرائد سيارة وآخر موديلات الأحذية ، وأنا وحدى شاخص العينين بلا معنى ، مثلث الجسد بلا مدلول ، ويداى طويلتان ممدودتان كالحياة ، وساقاى مضمومتان تجمعهما رأس مسمار واحد ، وأنا مصلوب وحدى ، وحدى وسط الميدان الكبير ، ويقول رجل لطفلته الصغيرة :

– تتساوى زاويتا المثلث المتقابلتان فى المثلث المتساوى الساقين . .

ولا يرى أحد قطرات متحجرة عند عينى ، فبقايا الذباب والحمام والغربان تشكل كتلة سوداء فوق الحاجبين وتحت الجفنين . . ولكنى آخر الأمر قد هربت من المربع .

الزنزانة

والديك لما رنّ فى سطحه
صوت نادى اللحن وزاكى النغم
كبّر حتى خف من صدحه
من نام فى الكوخ ومن لم ينم
ورتل الأنغام فى صبحه
يُطرى بها النور ، ويهجو الظلم

محمود حسن إسماعيل

عالمنا فى الليل عالم غريب ، لا يعرف الظلام ، فعالمنا فى الليل دائماً عالم مضىء ، أحدنا يأخذ نفساً من سيجارة فيضىء كل شىء حولنا حتى حديد الشباك الصغير الصدئ ، يبدو كشىء مبهم ولكن محدد واضح مبين . .

ويهمس أبو سريع . .

– سيجارة حقيقية ، وكاملة ، قلت لكم الشاويش يعرفنى ولن يغش فى صنف السجاير والأفيون . . ويتنهد ، ويملأ جو الزنزانة شخير صدره أرهقه الدخان والمعسل والحشيش ويقول :

– المعلوم – يحكمه المعلوم ، مسكين له سبعة من الأولاد ، ماذا يفعل هذا المسكين ليأكل الأولاد ، ويروحوا إلى المدارس ، ويدخلوا السينما . .

وتبص سيجارة ، يمتصها فى شراهة ، الولد برعى ينزوى فى ركن الزنزانة الضيق البعيد ، ويقول :

-- هل يريد أحد أن يخمس ، هى من بقايا سجاير الأمس وليست سيجارة حقيقية ، بل معظمها قش ولكنها دخان والسلام .

ويصمت الكل وهم ينظرون إلى يده الممدودة فى عطاء ، فى آخرها بقايا عقب من سيجارة . .

وتمتد يد معروقة تأخذ العقب ، ويسود الصمت لحظات ، لا شىء إلا تردد الأنفاس من سعال أبى سريع وهو يخرج سيجارته الحقيقية من فمه يستمتع بها وحده ، ثم يقول عوض :

– تشكر يا برعى ، السيجارة حلوة والنفس تمام .

ويقول برعى :

– أعطها لمرسى فهو إلى جوارك ، ومازال فيها نفس أو نفسان . .

وتنتقل السيجارة ويبص طرفها المشتعل بين الحين والحين والصمت يملأ الزنزانة وشخير أبو سريع يغطى صوت الأنفاس المتخافتة المريضة . .

ويأتى سعال متقطع من عبد الحميد ببدلته المكرمشة وياقته المعوجة وربطة العنق الزائغة تحت الياقة ، ويهمس فى صوته الرفيع :

– هل نمكث هنا كثيراً . . ضقت بكل شىء ، أريد أن أنام ، ولا أستطيع أن أنام . .

ويضحك برعى ضحكة خشنة ويقول :

– الأفندى ضاق بجلسة المجرمين ، هل عند أحدكم حكاية تسليه . . ثم

يصرخ فجأة وهو يقول :

– كادت السيجارة أن تحرق شفتى ، نطفئها والسلام . .

ويسكت الكل وعيونهم ملتصقة ، ويموت ضوء من الزنزانة ولا يبقى إلا بصيص سيجارة أبى سريع بطرفها الملتهب كأنه عين ترصد كل شىء ، وترى كل شىء . . وتفهم كل شىء . .

وينبعث بكاء خافت حزين من طرف بعيد . . .

ويصرخ موسى :

– قلنا لك ، لن يأكلك أحد ، لماذا البكاء يا ولد . . .

ويعود الصوت الرفيع الحاد العصبى يصرخ :

– أريد أن أذهب إلى دورة المياه . . .

ويتعالى الضحك ، ويسعل أحدهم ، ويبصق آخر بصوت مسموع ، ويأخذ أبو سريع نفساً من سيجارته فيضىء الوجوه الشاحبة والعيون الشاخصة ، ويعود برعى يقول وفى صوته حدة :

– الجردل عند الباب ، أم تريد أن نذهب بك إلى الهيلتون لهذا الهباب الذى تريده ، الجردل موجود فاذهب وكف عن الصراخ .

ويعلو صوت موسى وفيه رقة وحنو :

– لاتغضب على الصبى . . من يدرى ، لعله فى الغد يصبح وكيل النيابة الذى يحقق معنا أو ربما القاضى ، قَدِّم اليوم يا أخ .

وترتفع ضحكات خشنة ، بعضها ساخر ، وبعضها عابث ، وبعضها لا معنى له . . ويقول أحمد من جديد :

– لا أستطيع أن أستعمل الجردل ، لا أستطيع ، وكلكم هنا ، كلكم حولى فى كل مكان . . .

كان صوته كالعويل ، كالبكاء ، كناى حزين ينهى آخر نغماته المريضة ليثوى إلى جوار المصرف الصغير ويموت . . .

وساد الصمت وعم الوجوم ولا أحد يتكلم ، ولا أحد يتنفس كأنما الكل ينتظرون . . .

وصاح برعى :

– وحدوه . .

فمضى صوته وحده يجوب الزنزانة كلها ثم يخرج من بين شقوق الجدران وبين حواجز الشباك الضيق وبين وجودنا الحى . .

وقال موسى :

– يا ابنى ، أنت لا تحتمل ليلة فى زنزانة ، مالك وللمظاهرات إذن ، اذهب إلى الجردل ولن يراك منا أحد . . .

وعاد صوت الطفل الخافت الحاد المرعوب يصرخ :

– لست أرى شيئاً ، لا أرى شيئاً أبداً . . .

وقال برعى :

– أحدكم يشعل ثقاباً . . .

وقال موسى :

– المعلم أبو سريع معه ثقاب فسيجارته أصلية ولا يشعلها إلا عود ثقاب .

وصاح أبو سريع وسيجارته يلتهب طرفها المتوهج فينير الزنزانة كلها :

– طبعاً معى كبريت ، من يقدر أن يحرمنى من الكبريت ، ولكن ليس هناك إلا عود واحد ، هل أعطيه لهذا التلميذ ولا أجد ما أشعل به السيجارة الثانية . . هل هذا عدل ياعالم ، تلميذ ، مكانه المدرسة ، أما السجن فلنا ، أما التلاميذ ففى أحضان الأمهات . .

وعلت ضحكة مكتومة ، ثم استشرت فإذا الكل يضحك ، وصاح صوت غليظ مخمور :

– الولد يريد أن يستريح ، أريحوا الولد . . أريحوا الولد . . أريحوا الولد . . .

ثم تعقبها ضحكة فاجرة سخيفة ، واشتعل طرف السيجارة فى فم أبى سريع ، وأمسكها بيده ثم لمحها الكل وهى تهوى إلى الأرض ، ثم يدوسها بقدمه فى عنف ، وقال :

– اخرس ، الولد أشرف منك ومن أبيك ، خرج يتظاهر من أجلك ومن أجلى ومن أجل ما لا نعرف لا أنت ولا أنا ، وسجن ، لا سرق ولا قتل ولا حشش ولا سكر . . الولد عظيم ، خذ يا مرسى الكبريت ، أضئ له الزنزانة ليعرف طريق الجردل ، وأقسم من فتح فيه عيناً أقتله ، أخرق عينيه ، أمزق وجهه بيدى . .

وساد صمت . .

وتحرك برعى فى قلق ، وتقدم مرسى وأمسك العلبة ، وقال برعى فى صوت هادئ :

– يا أخ أنت رجل بين الرجال لا ترع سأغطيك بجسدى . . بوجودى

كله ، فقط لا تخف

وقال مرسى :

– الكبريت فى يدى . . تعال اتبعنى . .

وسكت بكاء الصغير . . وسكت الكل ، ووقع أقدام ، وسعال أبى سريع ، وسعال مريض من المخمور ، واشتعل فى وسط الزنزانة عود ثقاب باهت ، وقال مرسى :

– من هنا . .

وقال برعى :

– سأستر عليك بجسدى . .

وسمعنا صوت اندفاع ماء طال حبسه ، وضوء العود الباهت الأزرق يهتز ثم ينطفئ . . .

وقال أبو سريع . .

– الليل انتصف . . الكل ينام . .

وقال برعى :

– من هنا يا أخ . .

وقال مرسى :

– سأفرد لك « حِرَامى » لتنام عليه . . .

وساد الظلام العميق ، ولم يعد يتردد فى الزنزانة سوى أنفاس متحشرجة وشخير غليظ من المخمور ، وأدرت ظهرى للحائط . .

ونمت . . .

فى الطريق

وقع أقدام
وقع أقدام
لا شىء فى الطريق إلا وقع أقدام

النفس مليئة بدخان غريب ، والأيدى تشابكت وظهورهم متلاصقة وعيونهم على واجهة المحل المضيئة المعتمة ، تبين بها أقمشة ملونة مصبوغة ، ثم تعتم ، ثم تعود إلى الظهور من جديد ، وأنا أقف على الرصيف وتدوى خبطة عالية تهز قلبى فى عنف ، من يدرى ، لعله انفجار . فاليهود عند الأبواب الخلفية للقاهرة ، والقاهرة مدينة مفتوحة ، لا شىء يحميها من الانفجار ، وينقبض قلبى وتهتز الناس وتكاد تقف ، ولكن ظهورهم وظهورهن كما هى ملتصقة متساندة أمام واجهة المحل يعرض الأقمشة ويضىء النور ثم ينطفئ ، ثم يضىء من جديد . .

ويرتفع صوت وقع الأحذية ، خلفى تماماً . . وأنظر فى حذر ، ويتقدم الشرطيان ، كتفاً إلى كتف وسلاحاً إلى سلاح ، ويصيح مجنون :

– إعدام . .

ويرفع الجنود بنادقهم ويصوبونها ثم ينزل سيف الضابط وينطلق الرصاص ، بعضه يصيب الحائط ورائى ، وكله فى قلبى وصدرى ، وتتهاوى

ساقاى وتتعلق قدماى وأتهاوى وأسقط ثم أسقط إلى جوار الحائط الملوث بالدماء . . أبداً . . بالدماء . .

وأبواق السيارات وصفارات موتوسيكلات تسبق الموكب للزعيم وصراخ صفارة الإنذار ، والراديو يهتف بنشيد عن المحاربين والوطن والصمود . . .

ويقول البائع :

– عقود ، عقود ملونة من الأقصر ، بل من أسوان ، هى عقود أصلية من العقيق . . والظهور كما هى تقف أمام واجهة المحل تضىء أنواره حيناً ثم تنطفئ . . ثم تضىء وتنطفئ . . وتتماسك الأيدى وتنطبق الأصابع مع الأصابع ويهتز ردف ملىء ثم يتداعى ردف صقيل كأنه الحلم ، كأنه شلال ماء يتداح إلى صحراء عطشانة تموت ظمأ . . وأحرك قدمى ثم أشعل سيجارة ويمر موكب من ثياب وألوان وعطور ، ويقف أمام الواجهة الملونة مع الواقفين ويهز أحدهم كتفيه وتهز واحدة ردفها ، ويضرب بائع اليانصيب الأعمى الأرض بعصاه ذات النهاية الحديدية السميكة ويقول :

– ألف جنيه ، ألف لصاحب النصيب بقرش صاغ . .

ويدق الأرض ، ويدق الأرض ، ويدق الأرض .

والوجه أعرفه وسط كل هذه العطور والألوان ، الوجه أعرفه ، ويبتسم ، وحين أبدأ فى رسم ابتسامة على وجهى يكون قد اختفى وسط الزحام ، ولا يبقى منه أمام الواجهة المضيئة ثم المظلمة شىء ، إلا ذكريات باهتة فى رأسى . . هل حقا أعرف هذه الوجه ، لا أدرى . . حقًّا ، نسيت ، فالسن تضعف الذاكرة . . والمرأة ردفها يملأ المكان كله مكتنز سمين ، يتضخم ويتضخم

ولا يبقى ردف أمام الواجهة إلا هذا الردف وحده ، يحتل واجهة المحل كله ، ويهتز فأهتز ، ويضطرب فأضطرب ، ثم يسير فأسير ، ويصيح شرطى المرور فى بوقه المعدنى :

– لا يسير المشاة إلا حين يلوح النور الأخضر . . لأمنك وسلامتك اتبع إشارات المرور . . .

ونمت ، كنت واقفاً ونمت ، وتوقف الزمن ، ودقات الأعمى على الرصيف بعصاته فى آخرها قطعة من حديد ، تدق الرصيف وتدق . .

وعاد الغناء البشرى يتجمع أو يتلملم ويغلق واجهة المحل بشىء متراص هو مزيج من أرداف وروائح وصدور وكلمات وهمسات ولمسات وحركة وصمت غريب . .

وهتف بوق سيارة ولمع ضوء مبهر وقال المنادى العجوز :

– من هنا . . اكسر يا بك اكسر ، فهنا مكان لسيارتك لا تخف . . هنا مكان ، اكسر إلى اليمين ، إلى اليمين ، إلى اليمين . .

« وزيقت » السيارة ، وصرخت فتاة ، وصاح المنادى :

– لحظة يابك ، مهلا . . مهلا . . ودخلت السيارة فى الشارع الضيق ونزل منها فتى فاره القامة . . حليق اللحية . . غزير الشعر . . وابتسم . . وتحولت إليه وجوه وانبعثت من واجهة المحل آهة ، وتمزق قلبى . . ومضى وقع العصا الخشبية ذات الحافر الحديدى يضرب على الأرض بانتظام . . بانتظام . .

* * *

الكلب

المشكلة أن الكلب نفسه لا يجد الفرصة ليكتب
حكايته . .
فهو لا يكتب
وهو إن كتب لا ينشر . ثم هو قد مات

منذ أعوام وهذه الحكاية تؤرقنى . ولكن كيف تستطيع أن تكتب عن كلب وأنت نفسك كلب . المشكلة أن الكلب لا يجد الفرصة ليكتب حكايته فقد مات . ولا تسألنى كيف مات . فهذه هى الحكاية التى أنتوى أن أحكيها لك . وأنا سأحكيها سواء سمعتها أم لم تسمعها . أرجوك . لا تستهتر فحياة الكلب ليست شيئاً مهملا يمكنك أن تقصيه بحركة من يدك ثم تشرب قهوتك وتشعل سيجارتك وتروح تستعرض الجريدة بين يديك . . حياة الكلب شىء هام ربما كان أهم من حياتك أنت نفسك . . أرجوك ، لا تحرجنى . فلست أعنيك أنت بالذات ، وإنما أعنى أنت أى الآخر هذا الذى يعترض دائماً . . فإذن لا مجال للحرج الشخصى فى هذا الموضوع . . ولعل أهم ما يعرفه الكلاب فى بلادنا هو الحب . فهم يمارسونه كيف شاءوا ، كنت تريدنى أن أقول فهى تمارسها كيف شاءت ، ولكن مسألة الضمائر هذه عندى لغوٌ ولغوٌ لا معنى له . . أنت تعرف أننا نسمى الحب فى بلادنا جريمة . . ونسمى من يحب زانيًا ثم نرجمه بالحجارة ، وهذا ما تفعله صبيتنا فى القرى والحوارى بالكلاب . . أفهمت ؟ . . هم ،

أعنى صبيتنا وجيلنا الواعد ، يرجمون الكلاب بالحجارة فى شغف وإصرار عندما يرونها تمارس الحب ، وتنظر الكلاب فى دهشة ثم فى خوف ثم فى ألم وتجرى ملتصقة حيناً ثم تنفصل لتموت تحت ركام الحجارة ثمناً للجريمة التى لا تعرف سرها ، ولن تعرف أو تفهم سرها أبدا ، فقط تموت وأجسادها مزق من لحم وجلد مختلط بالدماء . . وعظام مشوهة ، حطمتها الأحجار التى رمتها أيدى الصبية ، يصيحون ويهللون فى فرح حيوانى أعمى . .

وتموت الكلاب فى صمت . .

وأموت . .

وفى قريتنا تجمعت أكوام السباخ من روث البهائم ، جمعتها أيدى فتياتنا الحلوات الشابات ، بسمانهن كضحكة القمر ، وثغورهن فى براءة الندى ، وقبلاتهن عذراوات لم يفتضهن بَشَر . . ومعهن جمعت الروث نساؤنا المتفتحات الناضجات ، رجرجات أثدائهن دعوة تصرخ من عالم مجهول نداء لعالم مجهول ، وتنهيدة حرّى لا يجاوبها إلا سعال صدور الرجال قتلها المعسل والدخان المغشوش وشاى ثقيل وحكايات سخيفة مجرمة آخر الليل عند دكان البقال ، وكذلك جمعت أكوام السباخ أيدى عجائز النساء من قريتنا ، متغضنات ، عجفاوات ، لا يعرف أحد أعمارهن ، فأعمارهن لا تحسب بالسنين ، ولا بأعداد الحفدة وحفدة الحفدة ، وإنما تحسب بالقدرة المستمرة الدائمة على جمع السباخ وتكويمه (وتقريصه) وتعريضه للشمس ليغدو وقوداً صالحاً لأفران المنازل فى ليالى الشتاء . .

يجمعنها ، أكواماً ، أكواماً من السباخ ، وفوقها الذباب يدور ويحط ، ثم

يدور ويحط ، ويرتفع الصديد كالستائر فوق العيون الحلوة ، ثم يرتفع ليغطى العيون بغلالات باهتة مريضة ، وتخبو العيون وتموت . .

وحين ينطفئ بريق عين الأنثى لا يبقى لديها ما تقوله ، ينتهى لحظتها كل ما ادخرته عبر السنين لتقوله ، فهى فى لحظتها لا تعرف إلا أن ثيابها روث وأن جسدها روث وأن عطاء عينها روث ، وأنها تموت شابة عجوزاً . .

وأموت . .

وكم من أسباب تجعلنى أعوى ، وأعوى ، ، أمام شبح يلوح فى منعرج الطريق ، وأظل أعوى وأعوى ، وأنبح وأنبح ، ويجاوبنى عواء الكلاب فى القرية كلها ، ونباحها المتصاعد من حنية كل زقاق ، ومن عند كل منعطف طريق ، وأنا أعوى وأنبح ، وهى كلها تنبح وتعوى مثلى واستجابة لى . . ولعوائى ونباحى . . ثم . . أجل . . ثم تصيب جبهتى طوبة تندفع نحوى فتشج جبينى وتدفع الدم ليسيل فوق وجهى وأمام عينى وعند أذنى وفوق أنفى ، ويتحول عوائى إلى أنين موجع حزين ، ثم أختفى إلى جوار شجرة ألعق الجراح والدماء السائلة ، وأبكى بلا دمع ، وأرفع نظرتى الحزينة المليئة بالدهشة والتساؤل ، وأتصفح بعينى وجوه العابرين فى صمت واستسلام ، وهم يمرون دون كلمة ودون التفاتة ودون تحية ، ودون رثاء ، فما أنا إلا كلب ، نعم كلب . .

وأموت من جديد . .

كانت الأزمة أنه كلب ذكى ، ينبح حين يرى الغريب ، وحين يقترب من منزله متلصص ، أو حين يقتحم المكان إنسان بغيض ، ينبح وينبح ، ويعوى

ويعوى ، وحين أصل إليه وأربت على أذنيه يسكن ولكنه مع الغريب أبداً فى قلق وخوف وتوجس من عواء دائم لا يبرح العنق الطويل الممتد فى نحد واستفزاز ، فليس فى بيوتنا مكان لغريب . .

وحين أعود آخر النهار منهكاً خالى الجعبة ، مريض النفس ، يتلقانى بعينيه وأذنيه المرفوعتين فى ود وذنبه الدائر دائماً فى تحية لا يريم ، ويدور حولى ويركع ، ثم يدور حولى ويركع ، فأضمه ، وألمله وآخذه بين أحضانى وأركع إلى جوار رأسه وأروح أقبله وأبكى وأحس بدمعات عيونه الصامتة تبلل جسدى وروحى وتمتلئ بها نفسى كلها . . وحين أداعب بيدى عنقاً يمده حين أتهيأ لأقبله أحس به يمد رقبته ويرفع وجهه ليتلقى قبلتى وهو يهز ذيله وفى عينه سعادة غريبة لا يعرفها إنسان ولم أعرفها من صديق قط . .

آسف ، واعذرونى ، ولكن لى مع الأصدقاء حكايات إحباط رهيبة ولهذا فأنا أقف عند سعادتى فى هذه اللحظات القصار مع كلبى المحظوظ ، أجل كنت أسميه (لكى) وأنا أحكى له تعاسات يومى ، وإحباطات وجودى ، وأنا أحس أنه يفهم كل شىء ويعذر ثم يرثى ، ثم يبكى ، ويتكوم كله ، يلتف ويتكوم تحت أقدامى ليثبت لى أن هناك من يصلى بجسده كله وبوجوده كله من أجل خلاصى . . ولم يصل أحد من أجل خلاصى ولو بكلمة زائفة تعبر شفاهاً باهتة لا معنى لكلماتها ، ولكنه يقول فى صمته الغريب وضمة جسده المحدودب المتقوقع بين ذراعى ، ونظرة عينه الأسيانة الفاهمة وهزة ذيله الوفية المؤكدة أن الخلاص يجىء ، وإن كل شىء تغير ، وإن الحياة تافهة وإن غداً شىء جديد . .

– هل تريد أن تموت . .

– أبداً ولكن وفاء الكلب شيء مذهل . .

– ولكن أنت قد أصبحت أسير الفكرة الثابتة ، والكلب كلب على أية حال . . .

– أنت لا تفهم . . لم يكن (لكى) كلب ككل الكلاب . . .

– كل من يحبون كلابهم يقولون هذا الكلام ، وكلهم يرون أن كلابهم فوق الكلاب ، بل ربما فوق الكثير من أنواع البشر . . .

– وإذن . . .

– لست أدرى ، وإنما تركت هذا لك ، فهل مازلت تعتقد أن وفاء كلب شيء مذهل . .

– إن الوفاء شيء مذهل سواء كان مصدره إنساناً أم كلباً ، كلاهما سيان ، المهم هو الوفاء . . .

– فالكلب عندك كالإنسان . . .

– لا . . وإنما الكلب عندى أكثر فهماً وصدقاً من الإنسان . .

– ربما وافقتك ولكن . . ماذا عن (لكى) ، حدثنا ولا تخف ، فلربما أحسست أننا نفهم . .

لست أدرى ياسادة هل تفهمون أم تعذر عليكم فهم حديثى، (لكى) كان بالنسبة لى حصن الأمان . .

ولم يحب أحد ، كان حوارى مع شبح وتبدد أبداً لم يحب أحد . .

فقط عندما عدت إلى بيتى فى الضاحية كان ابنى يبكى وكانت ابنتى تنوح

وتلطم خديها كجدتها من قديم . .

أتفهم ما حدث ، ضايق نباح (لكى) لصوص المنطقة فقدموا ضده شكوى لأنه يبطل أعمالهم ، وسرعان ما قدمت الشرطة ، وأحاطوه ، ونبح وجرى وفى عينيه تساؤل ، ثم نبح وجرى وفى عينيه دهشة ، ثم نبح وجرى وفى عينيه ذعر ، وانقض عليه الجمع وأحاطته الخية وانطلقت رصاصة وهوى ، وذعر الأطفال . . ومات صوت كان يصيح وينبح حين يقدم غريب ، حين يصبح شىء فى غير مكانه ، حين يقتحم من لا حق له مكاناً فى حمى مصون . . ومات . . .

وبكى الأطفال . . .

ومت . .

ألم أقل لكم إن حكاية الكلب لن تستهويكم أبداً ، وماذا فيها ؟ إن كلباً مات ، وماذا يعنى هذا ؟ آلاف الكلاب يقولون ما يملى عليهم ، ألأن كلباً نغمه نشاز . . فحوصر ومات ، تهتز قلوبكم ، ما أرهف قلوبكم إذن . .

أتحدثوننى عن الأطفال ؟ . . وما علاقة الأطفال بالموت ، كلب ومات قتلته الشرطة لأنه مشاكس ، لأنه يعوى دون إذن ، وينبح حين لا إذن بالنباح ، أليس كلباً سيئاً وقحاً إذن ، كلباً استحق الموت ، رصاصة بين العينين ، ويهوى ويصبح الجسد الحى الصارخ بالدفء والحب كمًّا مهلا يحمل إلى عرين الأسد أو النمر أو الدب فى حديقة الحيوان ليقتات به مهرج يسلى الرواد يوماً أو بعض يوم . . ويقول أطفالى :

– أين (لكى) . . كم كان . . وكم كان . .

وأصمت . .

وأموت . .

ويقول شيخ الحفراء فى قريتنا . . .

– الولد عويضة يضايق العمدة ، ديته قرش صاغ ، رصاصة . . أجل . . ثمنه رصاصة ، ويسكت إلى الأبد ، فقط يأمر العمدة ويتستر العمدة . .

وفى هذه المرة أمر العمدة وتستر العمدة ومات كلب ، لم يفعل شيئاً إلا أنه نبح دون إذن وعوى دون رخصة وقال ما لا يجب أن يقال . .

فى عينيه حب وألفة ، ويهز ذيله فأفهم عذابات يومه ، وأربت عند رقبته فيفهم عذابات يومى . . ثم أبتسم ، ويكشر عن أنياب بيضاء حانية وأقبله فيهز ذيله ، وتحيط برأسه خيه الشرطة الأقوياء ، وتدوى رصاصتهم ، ويموت ، ويقول ابنى الصغير . .

– يا أبى ، كيف قتلوا (لكى) ، ولماذا . . ألم يكن كلباً ذكيًّا وحلواً وأميناً وطيباً . . .

ولا أعرف جواباً ، وكيف أجيب وكل الأذكياء والحلوين والأمناء والطيبين يقتلون دون أن يكونوا كلاباً . .

ياعمرو الصغير ، يا بنى ، الموت لا يصيب الأشقياء ولا الكلاب ولا الوحوش ، الموت شىء يصيب الأحياء كلهم . . آه لو يعلمون ، ولكنهم دائماً ينسون ، ولكنك لن تنسى أبداً عواء كلبك الحبيب ، طبعاً لن تنسى نباح (لكى) عند الباب يطرد الكواء الغريب والسائل المريب ، واللص يتلصص بين الأشجار . . أبدًا لن تنسى أنت كلبك ، وأنا أبداً لن أنسى بسمة الصديق

وهزة الذيل والوجه يرتفع فى فهم وحب واقتناع بأننى لن أخون . . أبداً لم أكن خائناً ، ولن أخون ، ويهز ذيله وعنقه يمتد ، وشفتى عند جبهته . .

وهو قد مات . .

وأنا أموت . .

وناحت دون قبر

لنفترق الآن . أشعر بالبرد والخوف . دعنا
نغادر هذا المكان ونرجع من حيث جئنا .
غريبين نسحب عبء ذكاراتنا الباهتة
وحيدين نحمل أصداء قصتنا المائتة .
لبعض القبور .
وراء العصور
هنالك لا يعرف الدهر عنا
سوى لون أعيننا الصامتة ،

نازك الملائكة فى قرارة الموجة

ولم ينح على قبره أحد ، مات كما مات كل من قبله ، ولكنه وحده لم ينح على قبره أحد . .

ذلك أن أحداً لم يكن يعرف أين قبره ، مات ودفن ، بل وربما لم يدفن ، ولكنه مات ، وشهادة من وزارة الحربية تثبت أنه استشهد فى ساحة الفداء ، وأنه رقى إلى الدرجة الأعلى أو رفع إلى هذه الدرجة ، ووجه كالح يحمل النبأ وابتسامته باهتة ، وهو قد مات . . أجل مات . . أجل مات ولم ينح على قبره أحد . . فلا أحد يعرف أين قبره . . ويحى ، قل لى أين قبره فأفديه بمقل العين وسواد الفؤاد وهمس القلب الذى يردد اسمه . .

يا تعس الرمال الصماء تمتص دمه وتخفيه ثم فى قلبها تلاشيه فلا يراه الكلب

اللاعق للدماء ، ويصون جسده دفئاً حاراً للصحراء ، وعطاء حلواً لأرضها علّها يوماً . أجل علها يوماً تنبت الصبارة ، علها يوماً تذكر اسم الشهيد اخترقت رصاصة حمقاء صدره وقلبه ووجوده ودمرت أحلام غده ودنياه . .

وتنوح أمه حين تتلقى النبأ الحزين :

– لو زوّجته ، لو تمتع بشبابه ، لو كان كأخيه صاخباً كثير الجدل . . ولكنه كان هادئاً كالنسمة ، حلواً كالزهرة . .

– ويحي وويح العمر كله ، كان كالنسمة الهادئة ، لا يسمع أحد له صوتاً ، لا يعلو صوته أبداً . .

ثم تشرق بدمعها الحبيس فتملأ به منديلها الصغير ، وتبكى ثم تبكى . .

– كنت أريد أن أخطب له ، أن أزوجه (نعم يا أماه) ، أن أجعله يحس معنى الحياة . . ولكنه كان دائماً يبتسم فى تؤدة ويجيب فى تؤدة ويهمس بأنه لا يريد . . آه لو زوجته لاسترحت ، ولأحسست أنه مارس نصيبه من الحياة ، ولكنه وحده لم يعرف معنى الحياة ، وهو وحده دفع ثمن خوف الآخرين . .

– لو . . . لو . . . لو

وتبكى ، وتصطبغ عيونها باللون الأحمر القانى ، لا شىء صبغها سوى دماء الشهيد المجهول ، لم أكن أعرفه . . لا أنا ولا الصديق الذى صحبنى بل ولا امرأته أيضاً ، وبكت هى وبكت زوجة صديق وبكيت . .

وللحكاية أصل على أية حال . .

ذلك أننا عرفنا صدفة وفجأة أن الولد مات ، وما كان بالنسبة لنا سوى الولد الصغير الحلو البسمات الصادق الكلمات ، يشرب كأسه فى صمت ، ويحنى

رأسه أمامنا جميعاً فى صمت ، ويسمع كلماتنا كأنما هو تلميذ يتعلم درسه . . وأمه تقول وسط الحديث كأنما تقطع رتابته الممجوجة :

– يريد أن يكون بطلا . .

فتقفز أخته وهى تحمل فى الشوكة بين أناملها صدر دجاجة . .

– ليس فى مصر أبطال . بل هو يريد أن يبهر البنات ، كل صاحباتى يبهرهن الرداء الرسمى وأنه ضابط وأن مستقبله لا تتحكم فيه نزوات الموظفين فى مصلحة العمل ولا يحتاج إلى وساطة لتنقله إلى حيث نراه . .

وتضحك ، وضحكتها حلوة مجلجلة صاخبة ، فيها دفء وحياة ، ويبتسم فى خجل وكأنما ضبطناه يرتكب إثم الارتباط بفكرة محرمة ، ولكنه مع هذا يجول بعينيه الملونتين بيننا فى صمت ، يشرب كأسه وهو يقول فى حياء :

– أبداً لست أريد أن أكون بطلا ، ولا أن أبهر الفتيات ، مهنة الجندى فى بلادنا ، عار ، وأنا لا أحب العار . .

ثم يصمت فجأة ، ويدس رأسه فى كأسه ولا يرفعه أبداً ، برغم حكايات الأم المحبة وضحكات الأخت الفاتنة المعجبة ، وبرغم أحاديثنا المتنوعة الملأى حول معنى الفداء ، ثم معنى الحب ، ثم حقيقة الضياع . . ويقول صديق :

– نحن فى مصر لا نعرف سوى جوف الكلمات ، والحقيقة أننا نحون بمجرد أنفاسنا نطلقها فى الهواء معنى الحياة نفسه . .

ويسود الصمت والوجوم . . والكلمات . .

وتقول أمه فى صوت حاد صارخ . .

– رحل أملنا فى الرجال . .

وتقول أخته وكلماتها تنساب كقطرات حلوة فوق صحن من عسل :

– وفية أنا أؤمن به . . فهو كما ترون حلو ، وهو كما ترون وجيه . . وهو كما ترون واعد بأمل عظيم . . ويصرخ صديق . .

– هو خدعة ، كلهم خدعة . . خدعة . . خدعة . .

وأسرع فأنهى الليلة الصاخبة قبل أن يحزن الملازم الشاب ، وقبل أن يحس الصديق حب الأم والأخت ، وقبل أن تتم القطيعة بين زوجته وصديقاتها يَفُقْنَهَا فى فراغ العقل وحب التباهى والقدرة على التلاعب بالكلمات . .

ومات . .

ولم يكن موته أبداً ككل موت ، فهو الموت الأعظم العظيم ، وهو الموت الذى لا يعرف أحد كيف يموته إلا من عاشت نفوسهم السكينة ، وعرفت قلوبهم صمت الواثقين . .

أجل مات . .

وتعود أمه بين دموعها الباهتة وهى مختفية فى ثوبها الأسود الفضفاض تقول :

– فقط كنت أريد أن أزوجه لأحس أنه عرف الحياة . .

فتصرخ أخته وعيونها المحمرة لوحة من حب وحنان ، وعطاء لحب وحنان ووعد مرّ أليم . .

– كنت أعرف أنه يحب صديقتى سلمى ، وكنت أعرف أن سلمى معجبة به بل مفتونة ولكنه كان كالعذارى حياء وصمتاً وخجلا . . ؛

وتصرخ الأم فتصرخ الابنة ويبدأ البكاء . .

وتنوح ولا قبر هناك . . ويقول الرجل المربع وقد جلس على المقعد المستطيل وفى يده مسبحة ، حباتها مستديرة ، وعلى رأسه طربوش متوازى الأضلاع ولحيته المثلثة تهتز :

– إنه مع القديسين والشهداء . . الجنة مثواه ، ونعم عقبى الدار . .

وتعود الأم تصرخ من جديد ، وتعود الأخت تخضب عينيها بدم غريب يملأ العين كلها ، وتسح الدموع فى تدفق دائم ومنتظم ورهيب ، ويقف قلبى وأكاد أموت . . أجل يكف عن الخفقان ، يا تعس ما يدمى هذه العيون ، وما يفجر منها الدمع الحزين . . يا تعس هذا الذى يغمر كل الجمال بقبح أزلى لا يرين ، يا تعسة . .

وتهمس زوجة صديق فى صوت حزين مهتز :

– كفى ، . كل هذا لا داعى له ولا معنى له ، فمن منا لا يموت . .

ويقول الصديق :

– وهل نحن أحياء ؟ هو عاش ومات لسبب . . أخبرونا لماذا نعيش ؟

وتجف الدموع فى عين الصبية وتهمس :

– فقط لو زوجته ، لو وَجدتُ له صبية وبيتا ولو كان له ولد لما حزنت كل هذا الحزن المميت . .

وتصرخ أمه :

– ليس له أحد يبكيه ، ليس له أحد يبكيه . .

ويصيح الشيخ المربع :

– له الجنة ومثوى الشهداء وهذا يكفيه . .

وتجول عين دامعة حمراء دامية حزينة بكل الجالسين وتهمس شفتان باهتتان من حزن دفين عميق :

– وكل ما يحنيه كلمات . .

السد تهدم والماء سال ، والأرض الخضراء غرقت فى سيول من حقد وانتقام والصحراء اشتعلت نيراناً وضجت صوتاً رهيباً هو انفجار القلوب التى تصخب ويختلط الحديد بالدم ، بالصدق الحلو الكامل بالموت الأزرق بالعطش الدائم المر ، باللون الكالح المقيت ، ومعطف القائد تلمع نجماته وعصاه تلوح ، وتموت ، تموت ، تموت . .

تقدم والله أكبر ، تقدم والمجد للشهداء ، تقدم والجنة مثوى الذاهبين ، وترتج الأرض وتحمر السماء ، والصوت يدوى ، رهيباً مخيفاً كالحاً كالصدى لشىء خرافى لن يكون ، وأحتضن الأرض لاهثاً أنفاس حياتى ، نافثاً دم قلبى وأقبل الرمال بشفاه شوهتها الشظايا . . وأموت . . وأموت . . أموت . .

قالت وهى تبتسم وجسمها يرتج كله :

– لنشرب كأساً فى صحة ابنى ، فابنى بطل ، وأنتم لا تعرفون ما يعرف ، لقد كلمنى بالأمس من مكان ما . . هو من الضفادع البشرية ولولاه ما عبرنا ، أقول لكم لنشرب فى صحته . .

وضحكت وتأودت ، ثم شربنا ونحن ننظر إليها فى انبهار ، وثديها ترهل وجسدها تشنده مشدات سميكة وشعرها كان فى الأصل سبيكة من خيوط شدته أيد ماهرة فوق قطعة من قماش ليخفى الشعر الأشعث الكريه ، وإهمال المرأة المسنة ، وكسلها الأعجف المقيت ، وفى كأسى بقايا لا أشربها وليس يشربها أحد

أبدا ، فبقايا كأسى دائما مرة المذاق ، كأنها شيء حامض كريه . .

ولم ينح على قبره أحد . . أبداً لم ينح عليه مخلوق ، فليس لقبره وجود . .

وتصرخ أمه ، لا شكل لها ولا جسد ، فهى فقط أم تصرخ من أجل ابنها الفقيد وتتشنج أعضاؤها فتصرخ من جديد . . ثم تتيبس أطرافها ويطوف بعينيها نهر من دمع ، ينسكب دون توقف ، ينسكب دوماً فى فيضان لا يجففه أحد ، ولا تبتلع ماءه رمال الصحارى التى ابتلعت دماء الولد الفقيد . . فهى أم . . هل رأى أحدكم أمًّا . . ؟

ويصيح الشيخ يلف رأسه طربوش متوازى الأضلاع :

– وحدوه . . وهو وحده الباقى دون الفانين . .

ولا يرد أحد ولا يسمع أحد . .

وتأوهت حين ضمها حبيبها ، وأشرقت حين مسح دموعها بشفتيه ، وهمست فى تخاذل وألم حزين تعيس :

– أريد أن أموت ، فهو قد مات دون زوجة أو ولد ، ثم أطبقت بيديها على رقبته تضمه فى عنف وتفترس شفتيه بشفتيها ، لا بأسنانها ، لا بكلها وتطبق عليه وتأكله ، وجسدها كله يهتز فى وجود حى مريد ، يخاف الحياة ويعطى الحياة ، وهمست بين أنفاسه اللاهثة . .

– تصور هو لم يعرف هذا ، ولن يعرفه أبداً فقد مات . .

وأطبقت عينيها على الدم والدموع ، وابتلت أجفانها على صدره الحبيب الذى لن يعود ، وأرسلت يدها تعبث فى شعره الكث ومدت أنفها يشم رائحة عرقه الحريف وفتحت شفتيها فى انتظار قبلة جديدة صاخبة . . ثم بكت وأنّت

من جديد . . وتقول زوجة صديق :

– كف عن البكاء فهذا لن يجدى . .

ويقول صديق وهو يهز رأسه فى تؤدة :

– لو أجدى الدمع لَبُعِثَ إلى الحياة الكثيرون . .

وتعود أمه فتنوح من جديد . .

– أصغرهم وأحلاهم وأحنهم وعطر أيامى كلها . .

ثم تبكى فى صمت . .

ويلتهم دموعها وتبكى فى حضنه فى صمت وشعرها يغطى صدره . . ودموعها تبلل وجهها وتتساقط فوق شعر صدره العارى . .

ماارتوينا حتى بشمنا . . ومن نهمنا الدائم نهر الحياة الذى يجرى مندفعاً كريح لا يوقفها شىء ، السد هدمه حماس القلوب المتدفقة بنبض الحياة ، وماذا كان ، وماذا يكون ، سوى من تراب ، والجبل ، أجل الجبل قعقعنا ، ملأناه صخباً بقذائفنا ، ومتفجراتنا ، وصيحاتنا المرعدة ونبض قلوبنا الآمرة الملتاثة والحياة غنت ، أرغمناها أن تغنى ، كما تغنى الرصاصة تنطلق من فوهة ضيقة سوداء لتنصب فى قلب يدق ، فإذا به يقف ويتدفق نهر حبر أسود نكتب منه الكلمات ، وأنصت . . تنصت جميعاً . . اسمعوا . . أما تسمعون ، هذا زفيف الريح العاتية ، هذا صراخ الصواريخ الملتاثة ، هذا نداء الموت تعلنه دقات القنابل فوق الأرض الصلدة ، هذا صوت النبض يرتعش ثم يرتجف ، ثم . . آه . . يكاد يتوقف . . نعم . . يكاد يتوقف . .

كلما مات ملك قام ملك . . والقنابل تدوى كصوت لا فكاك منه ، يأسر

الروح والنفس والقلب والوجود كله . . ونحن أسراه . . إلى الأبد . . دائماً نحن أسراه . . فما كنا إلا من الصوت ولا نعيش إلا للصوت ولا نموت إلا والصوت يغلف كياننا كله ويتعقبنا إلى القبر ، حين تأتى النائحات يلبسن السواد ويعقصن الشعور الملساء ويغسلن الوجوه من بقايا أصباغ ، ثم يبكين فى صمت ، ويوزعن الطعام والقروش ويقرئن القرآن . . وفجأة يتذكرن الفراغ والعدم والقبر والخوص حين يهل ميت جديد تحمله الأكتاف والسواعد ليغوص فى بطن الأرض ، ويرتفع النواح والصراخ وتسمع الصوت يدق علينا أرض القبور الصلدة ، ويخترق ترابها الهش اللزج المليء بالعصارات والهوام وطحن العظام . . أما هو فلن يتعقبه الصوت أبداً ، فليس له قبر ، ليس له قبر .

وهمست متهافتة بعد صراع استنفد منها كل الجهد والعرق والحب والخوف والتعاسة والرضا :

– وحين أريد أن أزور قبره . . أين أجده . .

وغطاها بذراعه فدفنت شعرها فى صدره ونامت . . نامت وقد انفجرت شفتاها والتقى جفناها وانطبقت رموش سوداء حلوة ، وقطرة عرق عند مفرق الشعر . .

وقالت أمه وهى تعدل خصلة بيضاء من شعرها تهدلت من وراء غطاء الرأس الأسود المضموم فى عنف :

– آه ، لو تمتع بالحياة . . لو عرف الدنيا . . لو زوجته . .

وقال صديق فى جدية وهو يطفئ سيجارته دون أن تنتهى كلها :

– كل لقدره . . كل لقدره . .

وهزت زوجته قدميها فى قلق ثم نظرت إلى زوجها نظرة استئذان ووقفت تلملم ثوبها وتحمل حقيبتها وتقول :

– كنا نود أن نمكث أكثر من هذا ، ولكن . .

وأسرع صديق يقول :

– نعم . . تعرفون الدكتور عباس . . ابنه استشهد ، ابنه الوحيد ونريد أن نذهب لنعزيه هو أيضاً . .

وبكت أخته ، فجأة انفجرت ومضت تبكى . . ونهضت أمه ومدت يدها فى صمت ، لم يكن فى وجهها دموع ، ولم يكن عند شفتيها تعاسة ، فقط كانت تقول :

– أتعبناكم . .

وتهاوت من عند قدميه ومدت يدها تبحث عن الحقيقة ، فهى لم ترتو ، لم تحس بجسدها تهمد رغباته تماماً ، إنما هو ضائع ، هائم ، يحوم حول صحراء لا ترتوى ، وحولها أزيز من رصاص ، وطلقات من مدافع ، وصراخ رهيب من صواريخ متتالية . .

ثم مدت شفتيها وعينيها وروحها ، وبكت . . بكت . . وعند شفتيها مرارة وفى قلبها عفن ، وفى عينيها بقايا دموع . . ولكنها لم تجد القبر فاهتزت وأخذت تنوح ، ويرتج جسدها الثائر كله ، يرتج فى عنف وقسوة . .

ويدها تمتد وشفتاها وقلبها وعيناها . . ولكن لا قبر . . تزحف وسط الصحراء ، البرد شديد ، يهز الجسد ، يأكل الأضلاع ، يقتلع كل دفء ، وكل سكون . . كل شىء يرتجف ، ولا قبر . . لا . . لا قبر هناك ، والتوت

حول نفسها فى صمت ، ومضت تنوح عليه . .

نعم ناحت دون قبر . . فلا قبر هناك ، ولا شاهد للقبر تمسه يدها الحزينة البائسة المتقلصة . .

يا على

أجبان
أجبان أنا
من يدعونى وغدا .
من يفلق رأسى وينتف شعر ذقنى ويقذف به فى وجهى ! من يقرض أننى ويصرخ فى حلقى إلى الأعماق
بأنى زائف منافق .
من لى بمن يفعل بى هذا ؟ فوالله لأقبلن منه ذلك . فما كان ذلك ليحدث لولا أنى رقيق الكبد كالحمامة ، تعوزنى المرارة التى تجعل الظلم مريراً لدى .

هاملت . شكسبير – ترجمة د . القط

– يا على :

والرياح تعصف حولى فى عنف وبحر الإسكندرية صاخب بتموج غاضب ، والليل مقفر ، ولمبات متباعدة لا تكاد ترسل إلا الظلال . .

– يا على . .

واقتربت من سور الجامعة ورفعت حافة بنطلونى وأنا أخوض الأرض المبتلة

وبركة الماء الآسن ، وطين الطريق الوسخ يبتلع أقدامى كلها . . وأمد ساق فى الأرض السائخة الموحلة الملعونة . .

– يا على . .

تخلصت من خناقات البار ومعركة الأجنبى الذى كاد يحطم البار ، ومع هذا تحاصرنى ثلاثة كلاب شرسة تكشر عن أنيابها وتهز ذيولها فى عنف وعيونها برغم الظلام محمرة . . وقرص القمر يرسل أشعته الكاملة وتحيط به السحابات تريد أن تحاصره ، أن تأكله ، أن تميته . .

– يا على . .

وتضخم السحاب وتمدد ثم مد غشاوات تحيط القمر ، ثم تأكله جزءاً جزءاً ، ويذوب القمر وسط السحاب الأسود ، ويسود الظلام المخيف .

– يا على . .

وبدت الظلال ثقيلة مخيفة مرعبة ، ظلال وظلال حتى الشجرة لها ظلال وسط الليل الدامس . ماكنت أتصور أن هذا من الممكن أن يكون ، ومع هذا فلم يملأ قلبى إحساس الخوف إلا وأنا أمر تحت هذه الأشجار ذات الظلال السوداء القاتمة . . ونبحت الكلاب وأسرعت نحوى وعدت أصرخ من جديد :

– يا على . .

ومرت عربة وتدافعت رشاشات مياه سوداء طينية ولكنى سعدت ، أجل سعدت بالأنوار والأصوات وحركة الموتور وأن فى السيارة أحياء . . فسرت من جديد ، وأخذت أتحسس بيدى سور الجامعة ملأه ملح ورطوبة وأصوات الأمواج تأتى إلى أذنى متلاطمة وأنا أتحسس مكانى وأسير ، وفى أننى رائحة

الملح . . ولم أكن أعرف من قبل أننى أسير فى شوارع مدينة من الملح نعم فالإسكندرية مدينة من الملح ، فوق الجدران كالصدأ ، فوق الأشجار كالأغصان الميتة ، فوق النفوس كالعفن المطرود . . وعوى الكلب وصحت :

– يا على . .

ولم يرد على أحد ، بعد مائة خطوة عمود نور جديد أسير ، يرسل إشعاعاً وسط الظلال ربما ينير لى الطريق لأعرف كيف أسير ، فبالأمس أمطرت فتكونت فى كل خطوة بركة من ماء مهمل ، ومساحة من طين لزج خائن مخيف . .

ثم بدأ القمر يشرق من جديد بعد أن قهر السحابة وامتد فى الشارع شعاع مضىء حالم حلو ، ينير لى كل الطريق ، ومع هذا وجدتنى أصرخ كالمعتاد .

– يا على . .

وكالمتعاد أيضاً لم يرد على أحد . . وأنا كنت أعرف أن علياً – خفير المنطقة – قد تدثر منذ ساعات بالبطاطين الدافئة ونام ، ومع هذا صحت بملء فمى :

– يا على . .

ثم ساد الفراغ ، دقائق تمر وأنا أنقل أقدامى وسط الوحل حتى أصل إلى الرصيف ، ثم أسير ويدى إلى سور الجامعة ، ولا نأمة إلا صوت هواء هادئ رزين ، وساعتها عرفت أن البحر كف عن غليانه وامتد كبساط رتيب لا شىء فيه إلا الظلام ، ويدى تتحسس مبنى الجامعة وأنا أسير ، وفى كل خطوة يتكاثف الظلام ويتكاثف ، ثم تبدأ أشباح الليل البارد فى الظهور وأصيح :

– يا على . .

ولا يرد على أحد ، ولم أكن أنتظر رد أحد ، فقط أصيح وسط العتمة والبرودة والظلام :

– يا على . .

ثم أسير من جديد . . ومع هذا يأتى لى صوت البحر رهيباً ومستمراً ورتيباً ولا أدرى من أين تجىء ، ولكنه يملأ الدنيا حولى بانتظام ورتابة . . وأنتهى من سور الجامعة وتطالعنى المنازل ، كلها مظلمة معتمة ، لا ضوء فى نافذة ، ولا شعاع فى أى « بلكون » من « بلكونات » الواجهات التى تعمر صدر العمارات كأنها الأثداء ، كأنها الوشم ، كأنها الوجود الحى ، ولكن هذا صوت موسيقى من راديو عتيق ، كله شوشرة ، كله تقطعات ، ومنه تنبعث موسيقى حالمة أسيانة . . وأنا أسير . . وثمة شىء أسود كثيف يحجب أشعة القمر فيخفيها ويسود الظلام أمتار الطريق المقبلة فأصيح :

– يا على . .

ولا يرد على أحد . . وأنحنى إلى اليمين فأمرق فى الزقاق المظلم المعتم ، ثم أتحسس طريق نحو البيت الثانى إلى اليمين ، وتصدم قدمى صخرة مجهولة فى هذا المكان وأكاد أصيح وأصرخ ، ولكنى أجمع كل صراخى وصيحاتى فى كلمة واحدة يقولها فمى فى وهن :

– يا على . .

ومن جديد لا يرد على أحد . . وتمر سيارة كأنها تجرف الأرض جرفاً فيهتز كل ما فى الشارع من ماء تحت إطاراتها . ثم ينبح كلب من بعيد وحين أصيح :

– يا على . .

لا يرد على أحد . .

ولكنى أدخل ملفوفاً مرتجفاً من البرد الغليظ مدخل بيتى الصغير فى الحارة المظلمة الباردة المتفرعة من الشارع الذى يحاذى مبانى الجامعة وأحس الدفء . .

وأصيح من جديد :

– يا على . .

ويطالعنى سكون ورائحة ملح وعدم ، ويختنق الريح ، وتتابعنى أصوات سيارة مسرعة ، وتروح رائحة الملح التى تأتى من البحر وتختنق ، ويصدمنى دفء غريب وأصيح :

– يا على . .

وأصعد السلالم المتآكلة ، وكل منها تئن وتصرخ ومن الخارج يأتى صوت سيارة تقف مرة واحدة فى فرملة ملعونة حاسمة ، ثم يسود الصمت . . فلا نأمة ولا همسة ، وأصيح وسط السكون :

– يا على . .

ولا يجيب ، ويصدمنى دفء المنزل فأنزل حافة المعطف وأتنفس فى هدوء وأسمع صوت التنفس المنتظم لمن يملأون الحجرة ، وساعتها أتذكر أنهم كثيرون ، فبرغم الشتاء أجرنا الحجرة لكل من أراد من الطلبة العرب ومن الأجانب ، وهمست بينى وبين نفسى :

– يا على . .

ثم خلعت حذائى ودخلت فى حذر وأنا أمسك الفوطة حول وسطى ترتج بعطايا رواد البار فى هذه الليلة المعتمة الباردة . . أحدهم الليلة لم يكن من الإسكندرية ، إنما كان يشرب بكثرة ويهود ورقاً أمامه بحروف متعجلة سوداء ، وأعطانى بقشيشاً ضخماً وقال :

– فى صحة الإسكندرية عروسة كل البحار وكل العصور . .

وأنا أهتف :

– يا على . .

ولا أكتمك أننى شربت ، لا يمكن أن يشرب غريب نخب مدينتى وأنا لا أشرب ، وحين دفع حسابه وانصرف ، سرت أتخبط بحثاً عن منزلى وأنا أصرخ وسط الليل الصامت المعتم البهيم ، قمره يختفى خلف السحب الغامضة :

– يا على . .

ولم يرد على أحد . .

وكان الأولاد نياماً ، والدفء يملأ الشقة كلها وأنا أدخل متلصصاً كاللص ، ومن الخارج يغمر نور القمر – الذى تحرر من كل السحابات – الكون كله ، ورحت إلى سريرى وأنا أهمس إلى نفسى فى صمت مخيف :

– يا على . .

وحين وضعت البطانية الدافئة حول رأسى أغلف بها وجودى كله وأستشعر الدفء كنت أهمس لنفسى فى صمت :

– يا على . . .

ونمت . .

الموردة

« قالت سيدتها وهى تكفكف دموعاً تريد أن تنسجم وتثبت صوتاً يريد أن ينفطر ، لقد أكرهت خديجة إكراهاً على الزواج ، ومس حياءها النقى ونفسها الطاهرة منه دَنَسٌ ، لم يستطع الحب أن يغسله فغسله الموت – قال سيد خديجة : وصنع الله لأبويها : فقد كتب على محبوبة أن تطوف ما عاشت بالدور تصنع لأهلها الخبز وكتب على شعبان ألا ينظف يديه ولا ثيابه من الطين »

د . طه حسين فى « المعذبون فى الأرض »

لم يكن فى الموردة أحد من الرجال ، فلم ترس أى مركب منذ الصباح الباكر جدًّا حين أقلعت مركب أحمد أبو إسماعيل محملة بزكائب العدس ، وعبد الله الأسمر المفتول العضل يجر حبلها على الشاطئ الممتد ، وقدمه تغوص فى الطين ، والحبل يغوص فى لحمه الأسمر وهو يدك قدميه دكًّا ويمضى ، وقد مات أحمد أبو إسماعيل وهو يفرد الشراع ويقف إلى جوار الدفة ، والمركب الثقيلة تتحرك فى بطء تشكل همهمة غريبة لا هى غناء ولا هى كلمات تشجيع ولا هى أى شىء ، مجرد همهمة وهو يدور بكفه الأسمر الغليظ فوق جبهته يزيح عرقاً

متهافتاً يروح مع نسمة الصباح الرطبة ، ثم تمضى المركب ، وتخلف الموردة خالية إلا من بقايا روائح ، وصخرات ملساء وحفيف الماء وبقايا همس قديم لا أحد يعرف سره ، ونقيق الضفادع الخافتة وصرخات الصراصير وحمأة الأشعة الصاخبة لشمس مقبلة تنذر بيوم قائظ ، ككل يوم قائظ فوق الموردة الخالية إلا من الفتيات يرفعن الثياب فى حذر وهن يدلفن إليها يغسلن من الماء الأسود وبقايا قطع الصابون ثياب الرجال والنساء ، وبقايا ليالى الأسبوع الفائت كله ، بقايا فيها معزة وفيها شقاء وفيها عبث الأطفال وضرورات الحياة الملحة . .

وقالت خديجة وهى تفرد ما معها من ثياب فوق صخرة متآكلة صفراء :

– ذهب زوج أمى إلى البندر وسيعود بصفقة جيدة فهو يريد أن يبيع ما صنعته من مناديل « الأوية » ، ويظن أنه بعد الحرب سيحصل على أثمان أعلى . . من يدرى ؟ ربما عاد لأمى بالشال . . وربما عاد لى بقميص جديد . .

وتنهد . . وعادت تغمس ما بيدها من ثياب فى الماء المتدفق تحتها عند الموردة . . وأخذت تضم الثياب فى قوة ثم تفردها ثم تضربها فوق الصخرة فى عنف ، وقد راحت فى حلم قديم عتيق . .

وكانت زينب كعادتها تجمع الشعرات البيضاء تحت الطرحة السوداء فى حركة دائبة مستمرة وعيناها الملونتان تتأملان سيقان الفتيات ، تركز بصرها على سمانات الأرجل . . فعندها اعتقاد راسخ قديم أن سمانة قدم البنت تشى بأدق ما تخفيه ثيابها من أسرار عن حقيقة جمالها وأنوثتها وعطائها ، وهى كانت تخطب لسيد ابنها ، سيد الذى عاد من الجيش فتى فارعاً يملأ وجهه شارب أنيق كشوارب الأفندية فى البندر ، ويرتدى سترة كستراتهم بل يتحدث مثل

حديثهم ، كان لابد لها أن تزوج سيد وأن تفرح به ، وكان لابد لها أن تختار الزوجة بنفسها قبل أن تخطفه واحدة من نساء البندر أو أن يخطئ الاختيار فيقع فى فتاة لا يكشف وجهها عن حقيقة ما تملك من عطاء للرجل ، فسيد هو سيد الرجال ، أليس ابن سى عبد الظاهر ، خير الرجال فى كل مجلس وفى كل فراش . .

وتعبر حمرة خاطفة وجنتيها الشاحبتين وتطرق إلى الماء بنظرها كأنما تدفن فيه خجلها وأحلاماً قديمة سعيدة شيقة ماتت منذ زمن بعيد ، منذ حمل لها جثمان أبو سيد ، نعم جثمان سى عبد الظاهر مسجى مفتوح العينين فاغر الفم وقد اخترقت رصاصة غادرة صدره القوى العريض. .

ورفعت عينيها المتعبتين تنظر إلى حيث اختفت المركب المحملة بالعدس ، هى تعرف وكل من فى القرية يعرف أن اليد التى أطلقت هذه الرصاصة كانت يد أحمد أبو إسماعيل ، وهى تعرف وكل من فى القرية يعرف أن بندقية أحمد أبو إسماعيل التى تختبئ فى قاع سفينته الكبيرة والتى لا تخطئ هدفها أبداً كانت مأجورة لعبد الستار . . عبد الستار . . عينه كعين الصقر ، ونظرته كنظرة الطاووس ، ويده فى فتحة الجلباب الصوف الأنيق ، وعند رأسه لبدة بيضاء لامعة . . ومع هذا فهى رفضته . . ليكن عبد الستار فتنة نساء القرية ، وفارس الغوازى على أطراف البندر ، وليكن أخاً لسى عبد الظاهر ووارث الفدانين بعد موته ، فكيف كانت ستعرف أن عقمها سيجر عليها الضياع والجوع بعد موت عبد الظاهر وبعد رفضها كل محاولات عبد الستار . .

وتنهدت . . ومدت يدها تغمسها فى الماء أمامها . . وعيناها زائغتان لا

تكادان تريان شيئاً مما يحوطها وهى مغروسة القدم فى الموردة . .

وعادت خديجة تقول وصوتها صابح فيه طراوة السن ، ونداوة الصبح وحلاوة العذراء المتفتحة :

– وطلب منى أن أصنع مناديل أخرى ، حتى أستطيع أن أجمع ما أشترى به فستان الفرح . .

وضحكت . . وتجاوبت الفتيات عند الموردة مع ضحكتها ، فتناغمت أصواتهن وتأودت واختفت أصوات الضفادع والصراصير فقد طلع الصبح ونور . . وبدأت العربات تسير فى الطريق الضيق خلفهن ، تحمل خضار الحقل إلى المدينة القريبة . .

ووقع حوافر الجياد يرج الأرض فى نغم موسيقى مع صهيل الخيل وعبث أعناقها بالجلاجل النحاسية المعلقة بها ، ويصيح حوذى .

– صباحنا جميل وصابح كالوجوه الحلوة الصابحة . .

وتتناغم الفتيات فى ضحكات عابثة ماجنة حية حلوة دافئة . .

وتطرق زينب برأسها فى حزن ، هى وحدها التى لم تعد صابحة ولا جميلة ولا شهية ولا كالندى المتفتح أو كطرح الأرض السوداء فى أول العطاء عندما ينور حقل البرسيم . . يشى بعطاء سخى يحيل الأرض السمراء إلى خضرة يانعة . .

ومسكت بيدها خصلة الشعر البيضاء الثائرة لا تريد أن تختفى ، وأعادتها إلى مكانها خلف الطرحة السوداء ، وعادت تغمس يدها فى الماء ترج قطعة القماش فى يدها رجًّا ، وهى تتلمس باليد الأخرى قطعة الصابون الذائبة عند الحجر

الأملس ، وفى بطء انحدرت دمعتان على خديها . . فى صمت مرير . .

كان لها الفستان ، فستان الفرح ، يوم لبسته ظلت القرية كلها تتحدث عنه وعن الترتر الذى يرتج مع كل حركة من جسدها البض ، وعن الضوء ينعكس ويتموج ويكتسى ألف لون وينير مع خديها مختلطاً بحمرتهما ويتناغم مع عينيها متحرجاً بزرقتهما الصافية . . أجل وليلتها . . لا . .لا تريد أن تذكر هذه الليلة ، لا الليلة ولا ما دار فيها من أحاديث ولا ما جرى فيها من أحداث . .

وأحست بحمرة تملأ وجنتيها وتلهب وجهها كله ، فعادت تطرق من جديد وهى ترفع إصبعها تمسح الدمعتين فى بطء ، وشرود .

وعادت خديجة تقول والعربة تبتعد بضجيجها وصهيل حصانها وصوت جلاجله وضحكات الحوذى :

– ويقول إن مناديلى مسعودة ، كل من رآها اشتراها ، لم يعد أبداً بمنديل منها بار فى السوق ويعبث وهو يقول :

– كلهم يسألون من الحلوة التى شغلت هذه المناديل . .

وينظر إلى بنصف عين وهو يتماجن ويهمس كأنما يريد ألا يسمع أحد غيرى :

– هل أقول لهم يا خديجة ، هل أقول إنها خديجة . .

وترن ضحكتها الحلوة الماجنة من جديد ووراءها ضحكات الفتيات كأصداء لنغم جميل ، كالآه تأتى بعد يالليل فى موال لصاحب صوت ممدود قوى لا يرهب الليل ويمد ليله إلى آخر صوته وآخر ما تستطيعه طاقة حنجرته وقوى صدره العريض المليء بالشعر الأسود الكث . .

وعادت زينب تزيل دمعتين جديدتين وهى تتنهد فى حسرة ، وتلم الثياب من فوق الحجر ، وتدفع يدها فى الماء تبحث عن الصابونة الذائبة التى تاهت منها وهى تسمع كلمات خديجة المتأودة الحية الصاخبة . .

ودوى صوت بعيد ، فرقعة عالية واضحة ، وسكن كل شىء ، همد حتى خرير الماء ، وانزلاق الثياب إلى الماء ، وحركة السيقان وسط الموردة . . صمت كل شىء . .

وأحست زينب بيد من حديد تقبض على قلبها وتكاد توقفه هو الآخر عن الحركة . . وارتجفت وهى ترفع رأسها وترنو ببصرها إلى بعيد . .

وصاحت خديجة :

– المركب تعود . مركب أحمد أبو إسماعيل وعبد الله يجرى نحونا على الشاطئ .

ثم شمل السكون كل شىء ، ومن بعيد ، بدأت المركب الكبيرة بشراعها المفرود تقترب فى سرعة ، وعند الشاطئ على امتداد البصر تعلقت عيون من كن بالموردة بشبح أسمر يجرى والحبل على كتفه يجر المركب عائدا إلى الموردة وكأن ألف عفريت يتعقبه

وصاحت فتاة :

– بسم الله الرحمن الرحيم كأن الشياطين تجرى وراءه .

وقالت أخرى وهى ترفع يدها من الماء . .

– والمركب إنها تجرى نحونا كأن ألف يد تدفعها فى عنف . .

وقالت خديجة فى صوت كالولولة . .

– المركب تجرى وسط الموج كأنها فرخة مذبوحة رماها من ذبحها للبحر . .

وشهقت وساد الصمت من جديد ، واهتز الشراع المفرود كجناح رخ كسير ، واهتزت المركب لاهتزازه ثم عادت تسرع صوب الموردة والحبل الذى يربطها يشدها وعبد الله يكاد يجرى جرياً فوق الشاطئ مسرعاً نحوهن وهو يصيح ، وكلماته بعيدة لا تصل ، ولكنه يصيح ، وهن لا يفسرن ما يقول ، ولكن كلماته المختلطة المتداخلة تكون صوتاً ممدوداً عالياً كالصراخ ، كالعواء ، كاللهفة ، كالضياع . .

وعادت يد من حديد تقبض على صدر زينب حتى لتكاد تحجب عن رئتيها الهواء : وأخذت ترفع قامتها وهى تهمس فى صوت خفيض :

– صوت كالبومة . . أعوذ بالله . . أعوذ بالله . .

وصاحت خديجة :

–المركب تجرى وسط البحر كأنها عجل غارق ، جثته تطفو بطينة سوداء كأنها عجل غارق ، يا صباح الشؤم أى والله كأنها عجل غارق . .

وساد الصمت من جديد . .

جثمان أبوسيد ، جثمان سى عبد الظاهر مسجى مفتوح العينين فاغر الفم ومكان الرصاصة أسود أزرق قاتم وسط صدره القوى العريض . .

وصاحت خديجة :

– لاتحمل المركب إلا الشر ، لاتحمل إلا الشؤم . .

كل من فى القرية كان يعرف أن بندقية أحمد أبو إسماعيل التى تختبئ فى قاع مركبه الكبيرة والتى لاتخطىء هدفها أبداً كانت مأجورة لعبد الستار . .

وقالت فتاة فى صوت معول :

– عبد الله يبكى يا بنات ، عبد الله يبكى كالنساء . .

ووضح الصوت لآذانهن ، كان بكاء حزيناً مفجوعاً ، دنا الصوت كأنه رعب أسود يملأ الجسر المزيل وهو يجر الحبل ويقترب ويقترب ، ويقترب . .

وصاحت خديجة :

– صوته كنعيب البوم ، لم أسمع من قبل صوتاً صارخاً ملتاعاً كصوته كالنداءات ، لا أبشع من صوت النداءات . . قلبى ينقبض ، أف يا بنات . . هذا شؤم هذا شؤم . .

وتنهد زينب . .

عبد الستار عينه كعين الصقر ، ونظرته كنظرة الطاووس ، ويده فى فتحة الجلباب الصوف الأنيق ، وعند رأسه لبدة بيضاء لامعة ، وصوته دافئ سخى دسم . . ومع هذا فهى قد رفضته . .

واهتز فى قلبها شىء ، فأحست بجسدها كله ينتفض ، ورفعت رأسها تحدق فى السفينة المقتربة بسرعة ، تميل إلى جانب وقد اقتربت حافتها من ماء البحر وكأنما البحر يريد أن يبتلعها والسكون يحط فوقها ولا حركة ، وعند الشاطئ يجرى عبد الله وفوق كتفه الحبل وصوت صياحه يصل إليهن واضحاً جلياً . .

– الظرف ، الظرف ، واحد طخ الظرف ، واحد طخ أحمد أبو إسماعيل . .

وصمت الكل وسكن الهواء ، وسكن موج البحر ، وسكن نقيق الضفادع وصياح الطيور ، وصرير الصراصير ، وسكت حتى ضوء الشمس يتسرب إلى

الدنيا بدفء ثقيل ، وسكت وجيب قلب زينب . . وهى تسمع عويل عبد الله يقترب ويقترب . .

– مات أحمد أبو إسماعيل ، طخه الظرف ، ينزف دمه ، رأيت الدم يبصر من صدره ، مات أحمد أبو إسماعيل ، يا ولداه ، يا ولداه .

ورف شيء بقلب زينب ، وأحست به يرقص فى صدرها ، ودفوف الزفاف تدق حولها ، وهى فى ثوب عرسها ، والكل يحيطون بها ، وسى عبد الظاهر يمسك يدها فى قوة وهى تتحرك إلى جواره فى خجل ، وامتلأ وجهها بدم قان أحمر ، وأطرقت وصوت عبد الله يعول من جديد ومن قريب . .

– غادر ، كلبه ، جبان ، واحد اختفى خلف الذرة عند آخر الشاطئ وطخه ، مات أحمد أبو إسماعيل ، الدم يملأ صدره ، يا ولداه ، يا ولداه

والقارب يقترب شراعه يكاد يمس الماء ، وحركته حزينة بطيئة مخيفة قاسية ، والبنات صامتات ، والبحر صامت ولا صوت إلا صوت الدفوف وصوت سى عبد الظاهر القوى يهمس :

– أنت دنياى وفتنتى .

والرصاصة تمزق صدره ، تتسع دوائر فوق الصدر العريض ، دوائر دوائر من اللون الأسود والأزرق والبنى القاتم والجسد هامد ولا حس ولا نأمة ولا صوت .

وصاحت خديجة :

– المركب ستغرق المركب سيأكلها التيار ، اثبت يا عبد الله ، اثبت

ياعبد الله . .

وبدأت تجرى ، وخلفها جرت كل الفتيات ، تركن الثياب التى كانت فى أيديهن ، وقطع الصابون ، وأخذن يجرين نحو عبد الله وعبد الله يصيح :

– التيار سيجرف المركب ، أسعفونى ، أسعفونى . . الرجل ضاع يا ناس ، الظرف طخه وسط صدره ودمه ينزف والرجل ضاع ، الرجل ضاع .

ليكن عبد الستار فتنة نساء القرية وفارس الغوازى على أطراف البندر ، وليكن أخاسى عبد الظاهر ووارث الفدانين بعد موته . . ليكن . . ليكن . . ليكن وقلبها يدق ، والقارب يقترب ، والفتيات امتدت أيديهن إلى الحبل يشدونه مع عبد الله ، وعبد الله ينوح كامرأة ثكلى ، وما فى القارب يظهر أمام العين ، وسطه يرقد جسد أحمد أبو إسماعيل مسجى وسط أكوام العدس والحبال ، ويده تتجمد عند الدفة ووسط صدره بقع سوداء زرقاء بنية تحوم حولها أكوام من ذباب . .

والدفوف تدوى ، والأضواء تنعكس فوق الترتر يملأ ثوب الزفاف وهو يرتج مع كل حركة لجسدها البض . .

ورفعت خصلة الشعر ، وتنهدت ، وأخذت تغنى ، صوتها عذب صاف وسط الصباح البكر ويد سى عبد الظاهر تضغط على ذراعها وصوته يهمس فى أذنها . .

– أنت لى ، أنت دنياىَ . .

والزغاريد تملأ القرية ، والقارب يقترب ، شراعه كاد يمس سطح الماء وفوقه جسد مسجى وسط صدره بقعة زرقاء بل سوداء بل بنية حولها ذباب

كثيف كثيف . .

وهى وحدها فى الموردة ترقص فى بطء وساقاها وسط الماء وشعرها تهزه نسمات حانية وعطر يملأ الجو حولها ، وتغنى ، وتغنى ، والقارب يقترب ويقترب شراعه من الماء ويكاد ينقلب وعبد الله يجره ومعه الفتيات وكلهن يصحن مع صيحاته ، وهى تغنى ، والدفوف تدق والثوب يرتج حول جسدها والترتر ينور وسط أشعة الشمس ، وسى عبد الظاهر يهمس لأذنها وحدها :

– أنت لى . . أنت لى وحدى . . أنت دنياى . .

والصوت يملأ الموردة ويطغى على كل شىء ، ويأكل كل شىء ، وهى ترقص وتضحك والقارب التعس يحط عند الشاطئ وأيد تمتد ليثوى جسد سى أحمد أبو إسماعيل وسط صدره رقعة زرقاء بنية تعسة عند أقدامها ، نصف جسده فى الماء على شاطئ الموردة وهى تغنى عرسها من جديد . .

الهمسات البعيدة

بك أستجير من الردى
وأعوذ من سطوات باسك
وحياة رأسك لا أعود
لمثلها وحياة راسك
من ذا يكون أبا نوا
سك إن قتلت أبا نواسك ؟

الحسن بن هانىء

عل أحداً يجيب . .

عل أحداً يقول . .

ولكن الصمت يرين ، إلا من موسيقى من راديو عتيق واهتزازات شمعة مضيئة ، وأصداء أحلام وكلمات سمعها من زمن بعيد ، وما عادت الأصوات تملأ الحياة ، إنما بعدت وتباعدت وغدت مجرد أصداء . .

ويح الصوت يريد أن يموت وهو بعد وليد ، ويح الصوت ليتوقف ، لحظات ، أقل من لحظات ، ليتوقف لأقول له كلمة . . وأبحث عن الكلمة ولكني لا أجدها ، حتى الكلمة سافرت من زمن ، وتشابكت مع الأصداء والروائح المعطرة العفنة الأسيانة ، روائح البنفسج والياسمين الميت ممزوجة بروائح الريحان ، ريحان وورود للميتين ، ما أتعس الروائح ، وأتعس الصمت الحزين . .

– أرسل لى الغسيل أغسله . .

– الغسيل قذر ولا أستطيع أن أجعلك تغسلينه .

الروائح والأصوات والموت الحزين فى مقبرة مجهولة عليها صبارة ، لا رائحة للصبار ، ووردة تظهر على استحياء وخفية وتموت دون أن يراها أحد ، هل رأى أحدكم وردة صبار ! ! ؟

ونهرب ، والنيل يجرى والشراع الأبيض مرفوع والرياح تدفعه ونهرب . . لا . . لا نريد أن نبقى ، نصطاد السمك ، ونشوى السمك على نار الخشب ، ونعيش . . ونهرب . . لا ليس هناك حب ، ليست هناك امرأة ، ليس هناك عطر أنثى ، بل رائحة الليل والنيل وقشر سمك وأشعة قمر مريض يحتضر . . ريحان وورود على قبور الموتى . . ريحان وورود على قبور الموتى . . ويؤذن الشيخ عبد الستار لصلاة العشاء وخمسة يصلون وراءه وبقعة تلمع على قفاه وهو يسجد ، والشيخ على يضحك فى سره . وهى هناك ، فى الحجرة الصغيرة عند باب الزاوية تغلى (دمعة) البطاطس وتحكم ربطة الرأس فوق جبهتها وتتخيل يد الشيخ على القاسية العربيدة النهمة بعد الصلاة . .

والنيل مظلم كئيب ، أحس به يملأ بمائه جسدى كله يغلفه ، يسرقه من الحياة ويغوص به إلى أعماق مظلمة مجهولة . .

وقالت وهى تمسكنى بين ذراعيها ورائحة صابون معطر رخيص تنبعث من شعرها :

– الشيخ عبد الستار رجل ولا كل الرجال ، يأخذنى بعد كل صلاة . . ولكنى لا أعرف طعم القبلة إلا منك . .

وعريانة ترقص بين الزير وموقد الغاز وسرير له أعمدة عالية وبق يعلو الحائط المتهرئ ، ومياه تنسكب من صفيحة تحت الزير . .

وأكلت أذنى ورائحة البصل تغشى عينى وعادت تقول :

– أما الشيخ على فهو ينتهز كل فرصة ليأتى إلى هنا ، يده ثقيلة وجسده ثقيل ، وكلامه ثقيل ، ونظرات عينيه ثقيلة ، ولكنه رجل ، لا يتركنى حتى أموت . .

ومت ، الترحنة لم يعد يزرع فى القاهرة ، ولم يعد يزين رءوس القلل فوق عربات الترمس ، والترام قد اختفى ، ولم يبق إلا الترولى يسير بالكهرباء ، وحتى الترولى باخ وشاخ وهرم . . والطفل فى قلبى مات على يديها . . ورائحة البطاطس تملأ الحجرة الضيقة ، وخبز يحترق ، وأنات السقف العتيق تتمطى أخشابه فى قلق ، وأنا مغطى بشعر رأسها الكثيف ، مزيج من رائحة العطر الرخيص وجاز وصابون معطر متداول وعرق ، والشيخ على والشيخ عبد السلام . . والرجل يؤذن وناس يصلون . . وعرق يملأ أجساد المتعبين وروائح كريهة من أقدام عريانة لم يغسلها الوضوء ، وتلفنى دوامة . . والنيل كما هو مظلم قاتم ، على حافته رجل يشوى الذرة وهو يسند قدمه إلى جوار السور وأنوار فحمه المتداعية تبص بعيون الموت والاحتضار ، ويصيح رجل :

– حى قيوم . .

وعند القبور ريحان وورد وخوص . .

والصمت يطبق على كل شىء . . لا أحد يجيب . . ولا أحد يتكلم ، لا . . لا أحد يجيب ، الصمت يرين ، ويهتز القارب الحزين فوق النيل الصامت

الوئيد ، فالليلة بلا ريح . . .

والموسيقى الحزينة بلا معنى . . والراديو العجوز لا يكف . . والصمت يملأ كل شيء . . ويلف كل شيء ، الصمت يمد أذرعته كأخطبوط . . كأخطبوط . .

ويح الكلمات لو تأتى ، لأراحتنى ، ولكن الكلمات لا تأتى ، أبداً لا تأتى . . مستعصية كدموع شيخ عجوز ، تبلل المقلتين ولا تنساب أبدا ، على الخد المتغضن ، لعلها تخشى أن تكشف زيفها غضون السنين . .

وعلى البعد يقول المسافر أوحشنا الكلام . . ولو يعرف مات بعده الكلام . . وصدئ الصوت وشاخ ثم تهرأ ، وفى حفرة لمم نفسه ومات . .

ويرتفع الأذان ، وهى تضيق فتحة الثوب وتوسع فتحة العنق لتبرز خصلات تمور فوق الصدر والظهر وبين النهدين ، ثم تسوى خصلات نافرة وتنهد ، بل ربما تمنت ، وربما غنت بكلمات الأذان ، فيا طالما سمعت الأذان . . كأنه سائح هذا التلميذ . . وقبلته عميقة غريبة . . ولكنها لا تفهم كيف يضيع كل هذا الوقت فى القبلات ، وهى تحرك جسدها كله . . وهى تشعر به كالحيوان ، ومع هذا فى عينيه حلم عريق كأنه بخور يملأ الزاوية من عند الشيخ العجوز يدور بمبخرته كل مساء فتملأ الحجرة والزاوية والكتاب وكل أسبوع يأخذ نصف قرش ورغيفاً علاه العفن ، والرائحة زكية وحلوة وذقنه بيضاء ولكن فى عينيه همود ، أبداً لا ينفع هو ، ربما مات منذ سنين ، برغم التمتمات والدعوات وحركة يده بالمبخرة الصدئة ورائحة البخور المنعشة ونصف قرش ورغيف عفن . .

ويل الصمت ، لا أحد يجيب . .

لا أحد يقول ، أبداً يصمتون كالموتى ويدعون الصمت يرين على كل شيء ، إلا من موسيقى مهتزة تنبعث من راديو عتيق ، وشمعة محتضرة ترتجف ارتجافات الموت الأكيد ، وأحلام وكلمات تنبعث من أصداء ماض عتيق ، ماض مخزون مات ولن يعود . .

أين الحب

رأينا الحب فرأينا شيئين معاً . . فجر الحياة ، وقبر أشلائنا . . أهو الحب ؟
أم قوس قزح دون لون الصدق . . ؟ لون الصدق الدامى الحزين . .

يا عمرا ضاع بحثا عن الكلمة ، يا وزن الشعر وإيقاع الموسيقى وانسجام النغم . .

ومن يدرى أننى أحبك ؟ . .

– أنت تدرى . .

والأفلاك والنجوم والقمر وليالى الشتاء الوحيدة الباردة ، وليالى الصيف اللزجة الصماء بلا نغم . . .

– أنت تدرى . .

وكلماتى العرجاء تعسة ، تحاول أن تجد لها مكاناً فوق الورق ، وقلمى جف والحبر انتهى ، والورق تمزق والنور انطفأ . .

– أنت تدرى . .

وهمس الأصدقاء فى حب ورحمة ، وفحيح الحقد فى شماتة ونهم إلى الفضائح ، وليالى العجائز أمام النوافذ المشمسة وأوانى القهوة الساخنة ، ومواء قط يتمطى فى أمان ومتعة . .

– أنت تدرى . .

وتقارير الكتبة ، صناعتهم أن يكتبوا ما يسمعونه وما يرونه ليكون وثيقة اتهام وكلمات البواب والكواء والحقير وبائع الصحف عند باب بيتى وصبى البقال يجوس خلال بيتى بنظراته ، والجرسون يسمع الهمس وهو يحمل القهوة ثم يملأ (التقرير) بكلمات عجفاء مريضة سقيمة ، لا تستقيم لأى قاعدة ولكنها تحمل كل همسة وكل نأمة وكل بسمة ، لعيون صارمة خبيثة متلصصة . .

– أنت تدرى . .

يا حبى ، حقا أنا أدرى فهل يدرى كل هؤلاء معنى الحب ، ياعمرا أضاعه البحث عن الكلمة ، وشرده السعى وراء وزن الشعر ، وبدده حب إيقاع الموسيقى ومزقه الحس المرهف بانسجام النغم . .

وأن يعرف العالم كله أننى أحبك . .

– ويكفينى أنك تعرف . . .

– ترى هل تعرفين أنهم يعرفون . . .

كل همسة صادقة بين شفاهنا ، كل اختلاجه دافئة بين قلبينا كل ضغطة يد أرسلتها يدى إلى يدك ، كل عبث حلو جالت فيه أصابعى بين نهديك ، كل آهة خرجت من قلبك لتعبث فى قلبى ، كل حب فاض من جسدى فأغرق جسدك عطاء وثراء ووجوداً وحياة ، كل نشوة رجرجت جسدك كله ودارت بحياتى ورأسى فأدارته . . كل شىء . . كل شىء . .

ياتعسى كل شىء يصبح نهباً مشاعاً مباحاً لعيون ملأها الرمد وأعماها الصديد وقتل حسها العمى المطبق . . يا تعسها ويا تعس حبنا ، وياتعسنا . . وياتعس

كلمة الحب . .

عريانان ، أنا وأنت ، بل عرايا ، أنا وأنت والحب ، بل عريانون أنا وأنت والحب والوجود والصدق . .

والبرد قارس ، وسياط الرياح تنوشنا فتخرب أجسادنا وتهدم دفء أجسادنا وتميت رجع نبضاتنا وتدفن فى صقيعها الرهيب كلمات الحب وآهات المتعة ، وهمسات الاشتهاء . .

كل شىء منتهك . . منتهك . . منتهك . .

– وهل تعرفين برغم هذا كله أننى أحبك . . ؟

– يا تعسك . . وهل أحب أحداً غيرك . . ؟

– أصادقة أنت . .

– وهل أملك معك إلا الصدق . . ؟

– تعنين كلماتك . . ؟

– أعنيها وأعيشها وأحبها . .

– باللشك ، صنعت ضياعى ، صنعت ضياعى . .

– بل أنت الذى تضيع . .

– أريد أن أصدق . .

– تصدق حبنا إذن . .

وهل تصدقه التقارير المرفوعة ، والآذان المرهفة رهافة الإلكترونيات الحديثة ، والعيون المشرعة فى دقة عيون الذباب الراصد لأدق حركات الكائنات حوله ، والأنوف المرهفة أنوف الكلاب لا تفوتها نغمة جديدة فى لحن

الروائح المحيطة بها . . ؟

– أنت مقبض . .

– أنا أحبك . .

– وهذا كله . . ؟

– تعاسة ما نعيش فيه ، تفرض نفسها على وجودنا وكياننا . .

– وحبنا . . ؟

– وحبنا . .

– فإذن . . ؟

يا تعس من يحب بلا أذن . . بلا ورقة مختومة عليها شهود ، بلا ثلاث صور والبطاقة وصحيفة السوابق وبصمات الأصابع . . وإقرار من اثنين من الموظفين عليه تصديق من رئيسهما وخاتم التاج ، وتوقيع الرئيس الأعلى وورقة الدمغة . . يا تعسه ، يا تعسه . . يا تعسه . .

والغريبان التقيا لا يعرفان السدود ولا الحدود ، ولا الممنوع والمحذور ، ياويحهما الغريبان التقيا على الحب . . .

أنفاسهما قطعة من نغم حلو مسترسل دافئ كله عذوبة وعطر وحب وكلمات ، دقات قلبيهما تريد أن تفيض على الوجود معنى الإيقاع والنغم ، وأيديهما المحمومة تقول كلمات خرساء ناطقة ، أروع الكلمات الخرساء الناطقة . .

– اسمك وسنك وعنوانك ووظيفتك . . والحب يداس بالأقدام الغليظة المصمتة ، فى أحذيتها قطع من حديد أصم لا يعرف ، لا يحس ، لا يدرك شيئاً . . .

– قل والله العظيم أقول الحق . .

– سياطهم تلف القلب وتنتزعه ثم تدور به وترميه ، فإذا هو فى جبد فأر يخاف مواء قطة أو فى جسد غزال يخاف زئير أسد ، أو فى جسد قطة تخاف من عواء كلب . .

ويرتجف قلبى وأنا لا أملك نبضاته ، لا أملك أن أمنعها أن تسرع أو أن تتردد أو أن تنتظم ، دقات القلب ليست ملكاً لى ، يوماً ظننت أنها ملك للحب ، وعرفت حين التجربة أنها للخوف الأعمى الأصم ، يقتلها ويقلقها ويتحكم فى سرعتها وبطئها ، يتحكم فى عطائها للجسد الذليل المرتجف تحت نبضات القلب العظيم ، مانح الحياة ، وأسير عبودية السوط المرعب الرهيب . . .

– وأنت تخاف ؟

– وأنا جبان لا أحب وقع السياط على جلدى المهلهل المتهرئ . .

– وأنت جبان ؟

– وأنا تعس لا أحب أصداء ما يدور بقلبى بعد انحنائى أمام السوط . .

– وأنت تعس . . ؟

– وأنا مخرب أخضع للأمر بألا أسير فى الشارع الذى أحب السير فيه ، وألا أعبر فى المكان الذى تعودت أن أعبر فيه ، وألا أتكلم فى الموضوع الذى أعرف كيف أتكلم فيه ، وألا أسمع النغمات التى عشت لا أطرب إلا للسماع لها . .

– وأنت مخرب . .

– يا تعسى . . يا تعسى ، يا تعسى . . .

– وأنا لا أحب أشباه الناس . .

– تعنين أشباه الرجال . .

– بل أعنى أشباه الموجودات ، فنذ زمن وأنت لست من الناس ولا من الرجال . .

وأنحنى على نفسى ، وأضم وجودى إلى وجودى ، وألملم نفسى كلها فى دائرة تعيسة متهرئة خاضعة وأسكن فى انتظار ضربة السوط ، وبداى تحميان رأسى فقط ، أعنى عينى . . بل لعلى أحمى مقلتى العينين فقط فكم أخشى الظلام لو فقدتهما لو عميت . .

– أنت أعمى . . .

ولا أرد ، أمد يدى أتلمس حبنا حيث عهدته ، ولكنى لا أعرف الطريق ، أمد يدى أتلمس عطرنا حيث شممته ، ولكنى لا أعرف الطريق ، أمد يدى أتلمس نغمنا حيث سمعته ولكننى لا أعرف الطريق . .

مع العمى ضاع الطريق ، حيث ضاع البصر ضاع الطريق . . فكل طريق لا يوجد إلا حين يوجد الإبصار ، والعمى حط على كاهلى فضاع الإبصار وضاع الطريق . .

– يا ضياعك ، يا ظلمة طريقك ، يا تعسك . .

– فأين حبك . .

– من لا وجود له لا حب له . .

– وأين حبك . .

– من لا نور له لا حب له . .

– وأين حبك . .

– من لا طريق له لاحب له . .

– وأين حبك . .

– تسألنى ولست حرة لكى أبحث معك على ما تسأل عنه ، الحياة كما تعرف مليئة بالأسئلة ، ولو حاولت أن أبحث عن إجابة لكل سؤال ، لضاعت الحياة ، ولست أريد لحياتى أن تضيع . . .

– وإذن .

– الضائعون ينصرفون ، الضائعون ينصرفون . .

– أصوتك هذا أم صوت القدر . . .

– بل صوتى ولست أعرف القدر . .

يا من أضاع عمره بحثاً عن الكلمات التى تاهت وسط خضم الصرخات ، يامن باع وجوده بحثاً عن أوزان لشعر لم يقل إلا فى مدح الأمراء ، يامن أذاب وجوده جرياً وراء إيقاع موسيقى لا إيقاع لها إلا فى أناشيد الحماسة والانفعال الصاخب الزائف المريض ، يا من قتل كيانه ليكون هناك انسجام فى نغم مريض مات من مرضه من زمن ولن يولد أبداً من جديد . . . يا أنت هل تدرى أن أحداً لا يحبك . . .

– والحب .

– الحب مات . . مات . . مات . . .

– أيموت الحب ؟

– بل يموت الحب . . .

– أيموت الحب ؟

– تميته الكلمات الزائفة ، تميته التقارير المريضة ، تميته الشهوة الرخيصة ، يميته الادعاء الكاذب ، يميته إن الحب مات . . .

– تيأس من كلمات . .

أضعت العمر بحثاً عن الكلمات ، فإن ضاعت الكلمات ضعت ، إن ضاعت الكلمات ضعت . . ومت إلى الأبد .

– والحب . . ؟

– وأين الحب . . . ؟

– حقا أين حبك يا حلوة ، أين

الحب

الصمت

. . . ولن يذكرنا أحد بعد حين فالصمت
ماعشنا ، والصمت ما نكون بعد حين .

قضيت عمرى كله أسمع الصمت ، وساعة الغروب والشمس مخنوقة بين ذراعى سحابة سوداء مظلمة يتكلم الصمت فأسمعه . . . وفى الليل شربنا القمر ففهمنا الصمت وأدركنا معنى الكلمات التى لا ينطقها ولم ينطق بها أحد قط . . وتنحنى جباه الرجال فى صمت وتتقوس أكتافهم . . أما النساء فكلهن عاريات السيقان والأفخاذ . . وأردافهن تهتز فى موسيقى صامتة تعول . . وترتج صدورهن فى كلمات بلا حروف ، ونفهم معنى الكلمات ونعرف مغزى الحروف . . ونغرق على أبواب المقاهى وفوق الأرصفة فى بحار من صمت عميق . .

والألوان تبهت وتختلط ، ثم تبهت وتختلط ، ولا يبقى إلا الأحمر والأسود ، الاثنان فى رمادى غامق ، ودخان ، ورائحة البن المحروق فى مخزن البن المجاور للمقهى ، وتمر امرأة تتأود فى عينها دعوة وعند شفتيها شيطان ، وجسدها يهتز فى حركة وعند وجهها إصرار صامت عنيد . . ونركع للصمت يبرز أعماقنا وما استتر منا وما لا نريد أن نعرفه أو أن نقوله . . فالصمت يهدد عذابنا ويحكى لقلوبنا الدامعة قصة أمل بعيد بعيد وموءود . . وتدوى أقشطة الطاولة فوق خشبها ،

ويرتفع صوت النرد يرتج فى الأيدى المعتمة ثم يقفز فوق خشب الطاولة المزين بالخطوط البيضاء والصفراء ، ويتحدث الصمت المتحدى بين اثنين يلعبان الشطرنج ، وتقرقر نارجيلة ويرشف أحدهم رشفة من كوب الشاى الساخن المعبق ، ويقول الرجل بلا وجل يسرى وعين أخفتها ضمادة «لله» . . ولا يرد أحد ، يسود صمت عميق . . ويدور الجارسون بصينية ملأى بالأقداح وأوعية القهوة وأكواب الماء المثلج ، وفى صمت تدور يده تفرغ حمله فوق الموائد ، والتزام العتيق «تزيق» عجلاته فوق قضبانه الصدئة ، ويقف . . . وضجة من بعيد ، ثم صمت قبيح معتم ولا كلمة عند القلم ولا شىء فوق الورقة ، ولا خط ولا نقطة ، ويسود الصمت المر الأصفر كريهاً كالعدم واليأس والعقم الدائم لا يشفيه دواء ، ولا ينفع فيه تغيير الرجال . .

والطفل يجرى وينط ثم يجرى وينط ويصدر صوتاً من حلقه ، من أعمق أعماقه كأن الكون كله يستيقظ عند الصوت الغريب يخرجه من حنجرته مزغرداً واشيا بالحياة لافتاً للحب والحنان والتدليل من أم معجبة وأب مفتون ، ويمضى يحجل والصرخات المتكررة تخرج من حلقه فى دفعات متشابهة مولولة وعند عينيه نظرة مستغرقة أن أحداً لا يستجيب . . وأن الحنان لا يتدفق . . وأن الكون كله لا يقف لبراعته فى الضحك وإصدار الصوت والقفز فى الطريق . . ويمضى الموكب الضاحك المعجب ، أب وأم ووليد يلفت الحياة ويأكل الحياة ويرقص الحياة . . والحياة حوله فى صمت مطبق كئيب . .

ويسرع الجارسون فى بطء شديد . . حاملا إناء النار . . جمرات محمرة من فحم صغير ، ومن نارجيلة إلى نارجيلة ينتقل بإناء النار . . ويملأ الجو صوت

الكركرة . . والماء يمور داخل النارجيلات الزجاجية الملونة . . ثم يخرج الدخان دفعات من الأنوف والشفاه والصدور ويتبدد فى الهواء ، كأنه لم يكن ولن يكون . . يأكله الصمت وبلاشيه فكأنه ما كان وما يكون . .

وتشحب السماء ولا تبقى إلا نجمات لامعة وسط دكنة معتمة تسود سقف العالم الأزلى الغريب . . وسقف العالم لا يهتز لأحد . . لا يغير ألوانه وصمته ودكنته وعيونه اللامعة من أجل أحد . . وأنا وحدى والصمت . . ورائحة البن المحروق فى الدكان المجاور ، وفتاة ترج صدرها فى عنف والصبى الصغير يزحف فوق أسافله وهو يمد يده يسأل الجالسين ، ويمد يده ، وكلب يعوى فى صمت ، والأوتوبيس يقف فى عواء مريض . . ويتوقف الهواء فلا يتحرك . . والنسمة تموت ويسود الصمت من جديد . . . والسحابة تأكل السماء كلها وتستولى عليها ، وتفرض عليها قتامتها المتعتمة . ولا شىء ، لا شىء . . لا صوت . . لا صوت . .

وإنما نحن فى معبد الصمت العتيق . .

خطاب إلى صديق

ولم تصل الرسالة ، ولن تصل أبداً .
فقدمات الكاتب قبل أن يكتبها .

أخى الصديق ، آسف عليك حين يزور الناس ، إذ يسمعون اسمك ، وكأنهم ما سمعوا شيئاً ! عيونهم تبهت النظرة فيها وتتوه ، وكأنى أكلم أصناماً بلا حياة ! أو كأنهم يسمعون كلاماً بلا معنى ! . أسفى عليك ! .

– تسمح يا بك إلى الداخل قليلاً ، فلست أستطيع أنا أريح قدمى . . وأخشى أن أدوس قدمك . .

– آسف . . ولكن تفضل ، أنت تعرف من أمامى يضغطون ، ومن يقفون خلفى يدفعون بكل قوتهم ، ولا مكان ! . لا مكان لشىء حتى لقدم . !

– إذن عذراً . .

– أعرف ولا اعتذار . .

ويمضى المترو اللعين . . والصَباح بعدُ طفلٌ فى يقظته ، والعيون وسنانة ، والأيدى متهالكة ، ودفع الأجساد لين متراخ سقيم . . والروائح باهتة ، والمترو يمضى فى صخبه يهز الأجساد والأذرع الممتدة تتلمس ما تستند إليه والسيقان الملتصقة تريد أن تجد مكاناً للأقدام . . أى مكان ! . أى مكان ! أى مكان . ! أى مكان . !

لهفى عليك ! رسالتك الباكية جاءتنى منذ أيام ، وأنا كلما قرأتها مَلأَتْ عينى دموعاً لا تريد أن تظهر للناس ، فهى ضعفك وضعفى ، ويحى وويحك من الناس ! لو يعلمون هو ضعفهم أيضاً ، هو تعسهم وخزيهم . . ولكنهم لا يعرفون ! أبداً لن يعرفوا . . كيف يعرفون والرخ يفرد جناحيه على المدينة وسطها بيضته العالية القاتمة المقيتة ، يثور إن أحدٌ اقترب من البيضة ، يثور إن أحد مسّ البيضة ، يثور ، ويخاف . . أنت تعرف ، هو جبان . . نعم . . الرخ جبان يخشى أن ينفتح القشر عن البيضة فيفوح العفن ، ويظهر العفن وتزكم رائحته العفنة الأنوف المخدرة بالعطور المستوردة . . !

– يا أستاذ ، من فضلك : أضع الشنطة فوق الرف إن لم يزعجك . .

– لا ، وعفواً ، هاتى الشنطة يا مدام ، أحملها أنا دونك . .

– لا ، وكل ما أرجوه هو أن تضعها فوق الرف فهو بعيد عنى . .

– أمرك ، هاتيها ، فالرف قريب جداً منى . .

– شكراً يا أستاذ . .

– عفواً ، يا آنسة . . آسف . . عفواً يا مدام . .

– لا ، بل آنسة . .

– إذن لم أخطئ . .

– أبداً . .

– تقدمى إلى هنا خطوة تستريحين . .

– أشكرك . . فعلاً . . هذا أحسن . . أشكرك . .

ثم تردد عجلات القطار فى انتظام رتيب . .

– أشكرك . . أشكرك . . أشكرك . .

وأهمس لنفسى وأنا أطرق فيندسّ رأسى فى كتف رجل يقف أمامى . .

– أرحمك . . أرحمك . . أرحمك . .

ويمضى المترو . . وتجرى الحقول الخضراء ، والمنازل الواطئة . . وأعمدة التليفون . . وأناس يقفون عند محطة لا يقف عندها المترو العتيد المندفع . . يصخب ويجرى ، ويلهث ويجرى . . ويندفع . .

ويزور الناس حين يسمعون اسمك ، كأنك لعنة تقود إلى قدر مخيف ، كأن حروف اسمك لعنات ينتظرها رجال مجهولون يقفون خلف المقاعد ، أمام المقاعد . . حول المقاعد ، ليمدوا أنيابهم العفنة إلى كل من سمع الحروف ولم يستنكرها . ، إلى كل من سمع الاسم ولم يزور ، إلى كل من صافح سمعه اسمك ولم يصرخ . . لا . . لا . . لا أعرفه . .

والمترو يمضى فى صخب يصيح . .

– لا . . لا أعرفه . . لا . . لا أعرفه . . لا . . لا أعرفه !

وفى الركن المنزوى المضغوط همس غريب . . .

– ألا ترى . . ماذا يظننا هذا المأفون ، عميا لا نرى . . ؟

– ماذا تعنى . . ؟

– الولد الخنفس ، صاحب الشعر المنسرح الطويل ألا تراه . . ؟

– أين . . ؟

– هناك عند الشباك . .

– لست أرى إلا مزيجاً من أجساد وألوان ثياب وحركات رءوس . .

– ذلك أنك أعمى لا ترى . . غِرّلا تفهم . .

– فماذا أرى ؟ وماذا أفهم ؟

– الولد الخنفس . .

– ماله . . ؟

– يحتضنها كلها . . ألست تراه ، إنه يحوطها بذراعيه وساقيه ، ويدس رأسه بين خصلات شعرها كأن أحداً لا يراه . !

– استغفر الله يا رجل . . هى الزحمة . .

– زحمة . . !

والقلم لا يستطيع الكتابة ، فهى تمسكه بيدها لتضيف إليه من شفتيها رحيقاً من عبق غريب لأرض أحلام لم يطأها قدم بشرى ، وهمسُ شفتيها يُميتُ الكلام عند شفتى ، والقلم يتعثر ويصمت ، ويكف . . وأنا لا أدرى . . أين أنا ؟ . شفتاى تغوصان فى شفتيها وجسدى كله يرتجف ، فأنا ملكها ، هى تمتلكنى كلى وتهمس . . !

– لماذا القطار ؟ ولماذاهذا السيد ؟ . أرجوك كن معى . . فأنا أريدك . .

وأضيع فى عطر وبخور ومترو خافت وموسيقى وشراب كالرحيق ، وأنفاسها بقايا أحلام وسحر . . وأهمس . .

– أبداً أنا معك . . من سيد ، ومن ألف سيد يا حلوة ؟ : أنا لك . . أنا لك . . أنا لك . . !

والمترو يصبح فى جلبة . .

– أنا لك . . أنا لك . . أنا لك . .

وتتأود وتهمس . .

– يا مجنون . !

ويعود المترو من جديد يصيح :

– يا مجنون . . يا مجنون . . يا مجنون . !

يا إلهة المتعة ، يا إلهة العذاب ، يا إلهة النسيان ، يربك لحظة فهو صديقى . . وأنا لا أريد أن أنساه . . عفوك . . اتركى لى ألا أنساه . . حتى وسط كل متع الدنيا وملذات الوجود لا أريد أن أنساه . . فهو لم ينسنى وسط كل أنواع تعس الدنيا وضنك الوجود ، أبداً لم ينسنى ، وأنا لا أريد أن أنساه . . ويحه اسمه وصمة ، حتى للمرأة المباحة اسمه وصمة ، لا تريد أن تعرف أنها عند إنسان يعرفه . . يا ضياعك يا صديقى ! . يا ضياعك ! . . وتمضى اللحظة الحلوة ، وأشرب كأسى ، وأذكرك ، وحدى أذكرك . . فهى لا تريد أن تعرف أننى أعرفك . . عفوك . . فهى تخاف السلطة ورجال السلطة وآذان السلطة وشفاه السلطة ، ولكنها تحب نقودى ، وأنفاسى ، وكلماتى المحمومة ، ولمسة يدى الصارخة . . بكيت حتى غدا البكاء سعارا يحرق القلب والأنفاس واليد والجسد . . ويحى من الجسد ! . اعذرينى يا حلوة فصديقى غائب لا يجىء ، وحين أذكره أنسى ضياعى وضياعك ، وأحب ، ويحك أن أنتشى العفن . . واسمك كالصدود ، كالسحر ، كالطلسم ، ولكنى صاحب الطلسم المسحور ، صنع بالحكمة ، ويبوح بسره للحكمة ولا أنساك . .

ويصبح المترو فى حركته الصاخبة وهو يشق الهواء شقاً . .

– لا أنساك . . لا أنساك . . لا أنساك . . !

– تسمح . . ؟

– ماذا ؟

– سيجارتك مشتعلة ، وليس معى كبريت ، هل أشعل سيجارتى منها . . ؟

– تفضل . .

– أرجو ألا يضايقك هذا . .

– أبداً تفضل . .

– شكراً . .

والمترو يصرخ وعجلاته تئز . .

– شكراً . . شكراً . . شكراً . .

ويقول المذيع . . صديقك تعرفه . . يقول فى نهاية برنامجه المسجل من المدينة الجريح :

– شكراً . . شكراً . . من مدينة السويس . .

وأغلق الراديو وثور فى قلبى عواصف ، وينفجر إعصار ، وتطفر إلى عينى دموع . . هى دموع الغيظ والذكرى والأمل المخنوق وأنه مأفون ، لعله مأبون من يدرى ؟ . . فالمأبونون يثدون كل حكمة فى دنيا لا رجال فيها ولا نساء . . ولا وجود إلا لأشباه الرجال وأشباه النساء . !

– ألا ترى الخنفس . ؟

– أخفض من صوتك ربما سمعك . .

– وماذا فى أن يسمعنى ؟ ألم يطل شعره كالنساء ، ليسمع همس الرجال عنه ؟

– لا تنس تأوهات النساء حوله . .

– أشك . .

– أنت لا تعرف النساء . .

– ربما . . ولكن حاذر ، فهو يلتفت ناحيتنا . .

– ورق ورق . .

– قاطع التذاكر . .

– هو بعيد فى آخر العربة . .

– لا يمنع هذا أن نعد له النقود . .

– وسط هذا الزحام كيف يمكن أن نعد له النقود إلا إذا أردت أن ترشد النشالين إلى مكان المحفظة . !

– المحفظة . . قل يا باسط ، ليس فيها إلا قروش ! وهل هناك الآن نشالون ؟ . وإن وجدوا فلاليم أرزاقهم أو قروش . !

– حتى النشالين . .

– حتى النشالين يا سيد . .

– ورق . . ورق . . ورق . .

والمترو يأكل الهواء أكلاً فيصرخ الهواء تعساً وألماً والمترو عجلاته تصيح فى رتابة . .

– ورق . . ورق . . ورق . !

* * *

أخى الصديق سيد . . هل تعرف معنى السأم ؟ . أنْ يغدو كل شىء ككل

شيء ، حتى صدر امرأة وبقايا كأس وازدهار وردة ، وبسمة عذراء ، لا شيء . . لا شيء . . وإنما سأم وعدم وموات ، والعرق يندلح على الجباه وتحت الشعر عند الرقبة ، وتفوح رائحته من الآباط روائح وروائح . . والعربة تهتز وتجرى ، تهتز وتجرى . . وقاطع التذاكر يصيح وهو يخبط فوق أعمدة العربة الحديدية . .

– ورق . . ورق . . البلك ورق . . الهانم ورق . . ورق ورق . .

صدق ، فما نحن إلا ورق . . ورق . .

وأنت تعرفه كان صاحباً لك قال وهو يتحاشى أن ينظر فى عينى . . .

– لم أره . . فقط كنت أمر عبر المدينة الغريبة ، وسألت عنه وعرفت أنه بخير وأنه ناجح . .

ولم أره . . أقسم ، لم يكن هناك داع لأن أراه ، فنحن كما تعلم نعمل فى حقلين منفصلين . . لم يكن هناك داع بالمرة . . وتلفت حوله وفى عينه نظرة أرنب مذعور ، وحركته حركة عصفور يتأهب ليفرد جناحيه ويطير والرعب يهز قلبه الصغير . . وهززت رأسى وقلت :

– أفهم . . مالك وله . . ؟

قال وهو يرفع صوته ويفرد صدره :

– ليس له حق فما فعله شيء زائد على الحد ، ولست أدرى كيف أقدم عليه ؟ . لا . . لا . هو مخطئ . . مؤكد هو مخطئ . .

وبحثت عن عينيه فلم أجدهما ! فقط صدمنى شموخ الأنف فى ترفع وهزة الكتف فى تعال . . وأطرقت برأسى وصمت . .

آخر الليل كنت تأتى منكس الرأس محنى الظهر . فى الوجه قتامة وعند العينين ذبول . . ولكن الأنف أشم والبسمة المرسومة تتحدى ، وتقول فى صوت صاخب هو مزيج من التعب والألم والمرارة والعناء والخوف والتحدى واليأس . .

– التاكسى لم يكمل ثلاثة جنيهات اليوم ، ومع هذا جبت القاهرة من أقصاها إلى أقصاها . . أسطى إلى الزمالك . . من هنا يا أسطى . . قف يا أسطى . . فاضٍ يا أسطى . . بين السرايات من فضلك . . البيت الثالث على اليمين . . وظهرى يوجعنى ، وآلام عرق النَّسا تفتك بى فتكاً . ! وابن الكلب حاف ومعه قفة ، إمبابة يا معلم ، واضبط العداد . . فنحن لا نأكل من حركات السواقين . . تأخذ سيجارة ، وحياة النبى إنت مجدع وأفندى متعلم كمان ! . تعيش المجدعة . . عندك هنا . . نأخذ فخدة (ضانى) من الجزار معنا . . لحظة يا معلم وتكمل المشوار . . المزاج مزاج . . تاخد سيجارة . . والله أفندى وابن أصول ما هى الأيام ترمى ابن الأصل . . يا سلام يا زمن . . يميناً يا أسطى على امبابة . .

والمترو يصيح فى رتابة . .

– أمبابة . . أمبابة . . أمبابة . .

وتصرخ المرأة فى عنف :

– أرجوك . . حاسب . . ابعد قليلاً . !

ويصرخ الرجل فى ضيق :

– يا مدام . . أنا بعيد عنك . . لم أقترب . . ولكن المترو يدفعنا فى

حركته . . . فأرجوك . . اعذرى . .

وتصرخ المرأة فى عنف وكأنها لم تسمع . .

– أرجوك . . حاسب . . ابعد قليلاً . .

ثم تزيد قائلة فى شراسة :

– أليس فى هذا المترو رجال يغارون على النساء . ؟

وكأنما أثارت معركة . . صاح واحد من نهاية العربة لم ير شيئاً ، ولم يسمع إلا كلمات المرأة الأخيرة . .

– النذل . . أليس له أخوات ؟ أليست له زوجة ؟ . ألا يفهم ؟ ألا يحس . ؟

وصاح صبى عند الباب وجهه اندس بين ردفى امرأة وساق رجل عجوز . .

– أستغفر الله العظيم ، لا يستحى ، لا يستحى أبداً ، وهو كل يوم يفعل فعلته هذه فى كل مترو ، وعند كل صباح . . يا سبحان الله العظيم . !

ومصمصت امرأة بدينة عجوز دردبيس شفتيها وصاحت بصوت ملأ العربة كلها :

– جيل ملاعين ، لا حرمة للحريم . . أين نذهب يا الله ؟ أين نذهب وهؤلاء الكلاب ينهشون لحمنا فى كل مكان ؟ . يا سبحان الله ! . . يا سبحان الله . !

وهمس صبى لامع العينين متوفز الحركات مضطرب الشعر :

– تظن نفسها امرأة . . !

وقال آخر يضم كتبه إلى صدره ، ويجيل نظرته حوله فى قلق كأنما يخشى أن

يظهر له الناظر من وراء أى مقعد أو من خلف أى راكب . .

– الغلطة غلطتنا . .

فعاد الفتى العريض البسمة الحلو العينين المترجرج الشعر يقول :

– غلطتنا أو غلطة الواقف وراءها . . سيان هى دردبيس . . وأن تقول هذا الكلام يعنى أن هناك من أخطأ . .

فهمس صديقه الخائف وعيناه تدوران فى قلق :

– الغلطة غلطتنا . . !

وعند الباب ولد وبنت ملتصقان ، يهمسان ، الشفاه عند الشفاه ويدها تعبث بصدره ، وقميصه مفتوح وشعره الكث مباح لأظفارها الملونة الحمراء . .

وقال الولد :

– لا تنظر إليه هو فتوة المدرسة . .

وهمس صاحبنا المرتجف هياباً وجلاً :

– ولكن من التى تقف معه ؟

– ألا تعرفها . .

– لا . .

– هى بثينة أجمل بنات المعادى ، وأكثرهن شقاوة لا تنظر إليه وإلا ظن نظرتك تحدياً .

– ولكنها تلعب فى صدره وشعره . .

– اتركها وانظر إلى . . وقل لى ماذا فعلت العجوز الدردبيس . . ؟

– تلتصق بالأستاذ أمامها ، وبالمعلم خلفها ، وبالولد التلميذ إلى يسارها ، وبصاحب اللبدة إلى يمينها ! ومع هذا أسمعها هى تصيح من جديد . .

ومن وسط العربة جاء صوت العجوز الحاد :

– جيل ملاعين . . أين أيامنا ؟ . . لم يكن رجل يستطيع أن يرفع عينه إلى سيدة ، كان يقف لها لتجلس فى الترام وفى الثورنيكروفت . . لا لم يعد فى هذا الجيل رجال . .

وتنحشر بين رجلين وتنهد . . وتتلون عيناها ، وتدفع كتفها إلى رجل وساقيها إلى رجل ، وعجزها إلى رجل ، وصدرها إلى رجل وتهمس فى صخب :

– لا ، جيل الرجال انقضى . . عشنا ورأينا النساء يقفن فى القطار . . يا بؤس الأيام ! ! .

* * *

تعسى عليك يا بؤس الأيام ! . . وأنت وحدك هناك تصنع الكلمة ، وتضع إلى جوار الكلمة كلمة لتخلق مشرقاً وعزة ، وتحمى كياناً وصموداً وتقول وجداناً ملأك فأضجرك . . يا تعسك ! ما أيئس أن نقول ما فى قلوبنا هذه الأيام ! ما أتعس أن نعيش ما نؤمن به ! كذباً يلفق حول الكلمات فإذا هى حبال من حرير ، لا بل من كتان مصرى أصيل يحوط العنق ، ويضغط مرة فى رفق ، ومرة فى عنف ، ولكنه يضغط ، ويضغط والهواء يروح ، والأنفاس تنفر وتتحشرج . . . والعمر يضيع ، ويصيح كلب . . !

– خائن فاشنقوه . . !

وتصيح مومس . . لم تجفف أسافلها بعد أن تركها آخر عميل . .

– عفن ، هو عفن . . اشنقوه فقد كذب الخديو ، ورفع يده ضد السلطان ، وصاح بكلماته يشتم الملك ، اشنقوه ثم اشنقوه ! فهو عاهر ! هو عاهر ! هو عاهر ! .

لهفى عليك من العواهر . . قطعن الأنامل حين بدا محيّا يوسف ، أغضضن الطرف حين اشتاق فرعون إلى امرأة إبراهيم . . لهفى عليك من بلدة تعيش بأسافلها ، من قوم أحبوا أسافلهم فعبدوا الإله (مانو) وقدسوه وأقاموا له المعابد ، ثم ركعوا لا يقفون أبداً . . لا يقفون . . !

والولد يقول :

– الغلطة غلطتنا . .

والقطار يهتز ويصرخ .

– غلطتنا . . غلطتنا . . غلطتنا . . !

وتمر أعمدة التلغراف . . ورجال منحنون أمام مساحات من الخضرة الممتدة ، وأبقار تضع رءوسها وسط الخضرة ، وصبية فلاحة حلوة ترفع يدها وتحيى القطار بمنة ويسرة . .

ما أحلاها برج هواء الصبح ثوبها ، ويلعب نسيم الصباح بخصلات شعرها ، والقطار يمضى . . ويمضى . . فى إصرار . . لا يعرف التوقف ولا السكينة . . وهو يصرخ حين تحز عجلاته بالقطبان . .

– هى غلطتنا . . هى غلطتنا . . هى غلطتنا . .

وأنت تعرف جيداً أنها غلطتنا . .

أم لا تعرف . . !

تعسى عليك لو كنت نسيت ! . يا تعسى عليك ! . فالنِّسيان يقتل كل شيء . . النسيان يضيع ما بقى فى قلوبنا من قبح ، ومافى حلوقنا من عفن وما فى أفئدتنا من مرارة . . ويوم نفقد هذا كله نفقد سبب أن نعيش . . أن نوجد . . أن نحيا بين الآحياء . .

تقول وهل نحن نحيا ؟ . أقول بل نحن الحياة يا صديق . . نحن الحياة . .

– بعلاوة المصنع هذا الشهر قلت أشترى كيلو ريش . أشويه مع الأولاد ونصهلل .

– ضاعت العلاوة . .

– ولا يهم ، المهم أن نحس بشيء من التغيير ، أن نحس أن لنا وجودًا . . أننا نعيش ، أن شيئاً جديداً يحدث فى حياتنا . وحياتك جلسنا فى البلكون وأوقدنا الفحم وشوينا اللحم . . وأخذ الأولاد يتبارون فى أكل اللحم الذى لم يتم شواؤه ، والصراخ والزعيق ، وكانت جلسة ليس كمثلها جلسة . . !

– تَعَب سنة نضيعه فى يوم !

– يا سيدى وكم ضيعنا ! . .

وأنت وأنا ضيعنا ، ياكم ضيعنا ! . تعس على ما ضاع منا باسم الكلمة واسم الشرف واسم الكرامة . . كل شيء شواء تفوح رائحتهُ فتزكم الأنوف ، وتمتد الأسنان الشرهة تأكل كل لحم فينا . . كل عرضنا . . كل ما عندنا . . كل ما أبقينا من قدسية معنى الكرامة والوجود . . ويمضى . . يمضى الآكلون . . ونحن لا نكون إلا العظام المهترئة الفقيرة بالندف من بقايا اللحوم . . لا . . نحن

يا أخى سيد . . نحن لحوم لا يأكلها أحد . وإنما ترمى للكلاب . . . !

وارتفع جرس المزلقان يحذر العربات على جانبى القطار ، وأخذ القطار يهدئ سيره ، والكل وقف وازداد الالتصاق ورائحة العرق والعطور الرخيصة وبقايا ليل مغلف بالأجساد . . وصاح واحد من العربة :

– الزحام فى النزول والزحام فى الصعود ، والزحام فى الوقوف . . ما هذا يا عالم . . ؟

ورد عليه صوت وقح ينضح بشباب معتم جاهل :

– الزحام للجدعان ، الولايا يفسحن الطريق للرجال . .

وصاح ثالث فى تهكم فظ .

– البك رقيق يا رجال . . حاسب على قدمه يا أبا عبده . .

وانطلقت ضحكة جماعية اشترك فيها أكثر من فم يخرج مع الضحكات دخان باهت عقيم .

ووقف القطار فاهتزت الكتلة الغليظة واندفعت من الباب الضيق فى معركة بالأيدى والأكتاف والنكات الوقحة . . وتدافع آخرون يزحمون النازلين ويعوقونهم فهم أيضاً يريدون الصعود . . وتذكرتك وابتسمت فى هدوء . . فأنت لا تحب من ينزلون أبداً ولا تحب أن تكون بينهم ، وإنما تحب أن تكون ممن يزاحمون على الصعود ، وأخذت أتأمل الوجوه المندفعة من فرجة الباب تشدها كتل تريد أن تنزل . .

عينان لا معتان متوهجتان برغبة مكبوتة برغم الصياح ، ووجه امتلأ بمسحوق اختلط بعرق بدأ يتسلل عبر طبقات المسحوق الملون الرقيق ، وشعر

ارتفع إلى أعلى فى ضمة كلها كبرياء وفى الوجه حزن غريب . . وفم أجدب من كل سن تلتصق شفته العليا بلحم شفته السفلى المتدلية فى إصرار أجرد لا معنى له ولا حياة فيه ! ويد تدفع ، وقدم تضرب ، وصيحات . . صيحات . . صيحات . . !

ولم يكن وجهك بينهم . . لم تصعد وسطهم برغم أن عشقك الأوحد كان أن تزاحم الصاعدين . . الوجوه الصاعدة وجوه ماتت . . جماجم تبحث عن كفن كبير ، كفن جماعى يحتوى الكل فى ضمته القاسية الواحدة ، ويروح يعربد بهم فى طريق مجهول أهوج ، وينزلون كما صعدوا صُمًّا لم يسمعوا . . خرساً لم ينطقوا . . حتى تعليقات الوقاحة وزقات الأقدام وبصقات النفوس المريضة لا يحسون بها . . قط لم أجد وجهك بينهم . .

ونزل كل النازلين ووقفت أنظر إلى رصيف المحطة المزدحم المتماوج ببشر من كل شكل ، ألف عين تتطلع ولا ترى . . ألف أذن تتسمع ولا تسمع . . ألف ألف أنف تتشمم ولا تشم . لا وأبداً . . ليست هذه محطتى . . ليست محطة الوصول . . ولكزتنى يد رقيقة ، وقالت الفتاة وهى تحرك شعرها المتماوج الأثيل :

– أليست هذه هى محطة نهاية الخط . . ؟

حنّيت رأسى وعيناى قد تاهتا فى صدرها النافر المشدود :

– نعم . .

– لم لم تنزل إذن . ؟

ودهشت فنظرت إليها وفى عينى سؤال حائر . . !

قالت :

– قالوا لى : انزلى آخر الخط . . وقلت لنفسى سأعرف محطة آخر الخط حين ينزل كل الركاب . . فأنا كما ترى غريبة عن المدينة ومواصلاتها . . وقد نزل الكل إلا أنت ، ولست أدرى الآن : هل هى محطة آخر الخط أو هى محطة هامة ينزل فيها الركاب . . ويتحرك بعدها القطار إلى محطة أخرى ؟

فى الصوت موسيقى حلوة . . لها رنة وفيها لدغة وغنة ، ومع كل كلمة يموج شعرها فوق كتفيها ويهتز صدرها بكل ثرائه وعريه . . وقلت :

– هذه آخر محطة فانزلى . .

فهمست وهى تهز ردفيها :

– وأنت . .

وقلت :

– لا ، وأنا أعود . .

– أنا غريبة عن البلدة ، تستطيع أن تدلنى ، فأنا لا أعرف إلا عنوانا أعطونيه على ورقة . . ولو كنت معى لاهتديت إليه . . !

همست وأنا أقتل كل نازع فى قلبى وجسدى وخيالى الجامح . .

– ولكنى لن أنزل . . !

وهزت كتفيها ونزلت ، ونظرت إلى نظرة غريبة ، ثم رفعت كفها اليمنى فى تحية وداع ، وعند شفتيها سخرية ، ومضت . . .

ووقفت عند باب القطار وحيداً ، والقطار خلى ملآن ، وبين الحين والحين تدفعنى كتف إنسان متسرع ، يريد أن يصعد ، ويحى ! ما أكثر متسلقى الأبواب

المفتوحة فى هذه المدينة . . . !

ولكنك لم تكن فى انتظارى فى المحطة ، بل لم يكن هناك فى انتظارى أحد على الإطلاق . . والمحطة نفسها غريبة . . وضجة المدينة الصاخبة أسمعها من بعيد ، كلها لهاث وسباب وتجديف وهمهمات مريضة حمل أجيال وأجيال من الموتى . . أصواتهم تأتى من الجبل البعيد عبر الترامات وكلاكسات العربات وتزييق الأتوبيس وصياح الباعة ، تحتج كالآهات الشريدة الصامتة . . لا يسمعها إلا أنا . . وأنا واقف وحدى ، والقطار يصفر ليبدأ رحلة العودة من جديد . . .

* * *

تعسى عليك ، كل شئ يبدأ من جديد ، كل شىء ، كل شىء ، يا تعس الأيام . . ! تمضى حاملة الحيوية والشباب واليقظة ، ولا تأتى إلا بالرتابة والعفن والضياع ، تعس عليك ، وعلى التائه الشريد ! . . لا يعود . . لا يعود . . لا يعود . . ! وتدور عجلات القطار من جديد تردد مع قلبى . .

– لا يعود . . لا يعود . . لا يعود . . !

ويمضى القطار ويصيح صوت حاد لا مرأة بدينة ينداح عرق الضحى فوق جبينها المجعد :

– جبل ملاعين . . لا حرمة للحريم . . أين تذهب يا ألله ؟ . أين تذهب ؟

وتردد عجلات القطار التزييق فوق القضبان بصوتها الصدئ الأجوف الحزين .

– أين تذهب ؟ أين تذهب ؟ أين تذهب ؟ .

وأهمس لنفسى فى استسلام وصمت :

– يا ألله . .

وتدوى صفارة القطار وأمضى معه وحيداً وأنت بعيد . . تعسى عليك . . !

أنت بعيد ! . أنت بعيد ! . أنت بعيد ! .

وتقول عجلات القطار :

– أنت بعيد ! . أنت بعيد ! . أنت بعيد ! . .

* * *

اليد والقلم

أيا بحر لو كنت الكريم كما ادَّعَوْا
قديماً لألقيت الجواهر للناس
وحليتَ منها العاطلات على الحلى
من (اللاء) لم يسعدن بالتبر والماس
ولم تدخرها كالشحيح لمارق
تسدلى بأمراس إليها ونبراس

عباس محمود العقاد

كيف تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة . . يا ضياعى إن غرستْ سن القلم فى قلبى تبحث عن مداد تخط به كلماتها . . ساعتها لن يبرأ جرح أبداً . . سيظل ينزف دمه بحثاً عن سن قلمها فإن نسى سن ألقلم نبع مداده ، نزف القلب إلى أن يجفّ ويموت . .

وهى سن قلم حاد . . غرسته صاحبته فى الرمال فأخرج حصّى وغرسته فى الماء فأخرج موْجاً ، وغرسته فى الطين فأخرج قوالب طوب مرصوص ، لهذا خرجت إلى الحياة وهى تبحث عن نبع دم يغوص فيه سن قلمها لتعرف كيف تكتب الحياة ، كيف يمتزج الدم بالروح فى معنى الخلق والإبداع . .

كيف تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة . . يا ضياعى إن عرف القلم سر الكلمة . . ساعتها تدور الكلمة وتدور . . ومن حيث بدأت تعود

فأنا غرست سنّ قلمى فى الرمال . وحصاد الهشيم حصادى ، وغرسته تائهاً وسط الدوامة الصاخبة فى اللجّة ، وغناء النهر ما دونت كلماتى وآلاف من جيف وطَفْلٍ ونفايات وقماقم زائفة لا أجد فيها أبداً جنّ سيدنا سليمان ، أو عفاريت آصف ابن برخيا أو اهرمن قيده طهمورث وقذف به فى اليم مطلسماً بأقدس الأسماء . . وإنما غرست سن قلمى فى الطّين ، والطّين مع وقع سن القلم ، غدا مُلِحًّا ، وتاه سن القلم بين الملح والقصدير ، وفوق صاح طائر البطريق ، وانهزم قارب الملاح فتحطم فوق صخر اليم ، وغرقنا فى دوامة من طين ، كلما صارعنا لنخرج منها ابتلعتنا ، وغاصت أقدامنا ، وصارعنا ، وحاولنا أن نخرج من الأرض الملح ، من الأرض الخراب ، من جبال الملح والقصدير ، وغاصت أفخاذنا والتهبت جروحنا وصاحت بنا فصرخنا ، واندس الملح فى ثغرات الجروح التى لم تلتئم فصارعنا وضربنا بأيدينا الهواء ، وضربنا بأقدامنا بطن الأرض ، وابتلعنا الطين حتى بطوننا ، وأجهضت ألف حامل مخصبة معطاء وانفجر من الأرحام دم أسود ، وغطّى السواد على بياض الملح ، ولون بقتامه لمعان القصدير ، وغصنا من جديد إلى حد الصدور . . وصحنا ولم يسمع أحد صيحاتنا ، وبكينا ولم يخرج بكاؤنا من صدورنا . فقد كان الطين الثقيل يضغط على صدورنا فيحبس الأنفاس والكلمات ويقبض على نبض القلب فيكاد يتوقف ويكف ولا ينبض من جديد . . ويح القلب ، يكف ويصمت وتموت دقاته الرتيبة العرجاء ثم تتوقف ، تصارع حينا وتصرخ ، ثم تلهث وتتوقف ويرتفع المد المخيف إلى الرقبة ونلهث . . كأنا نجرى ألف ميل فى ثانية ، والهواء يتحشرج ، وهو يتوقف ثم يصارع ، ثم يصل . . ثم يتوقف من جديد ،

والدموع تطفر من العيون المقهورة التعسة ، من العيون المريضة المشرفة ، من العيون التى تموت . . تموت . . تموت . .

والطين يقف على الفم ، على الأنف ، على العينين ، على الجبهة ، ويضيع كل شيء فى غمار الطين . ويموت كل شيء فى طوفان الطين ، يتخلل الشعر الميت ، الرأس الميت ، المخ الميت ، عفواً . . مات كل شيء . .

ويحى . . كيف مات . كل شيء؟؟ أعرف ، تركت الطوفان يغمره ، يأكله ، يضيعه ، يبتلعه ، ثم يلفظه نفاية فوق نفايات ، بقايا فوق بقايا . . صديداً من جراح ملوثة لا تلتئم أبداً . .

كيف تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة . . يا ضياعى إن عرف قلمها سر قلبى ، سر العجز والتَّعَس . سر ألف مدخنة نفثت خلاصة دم ألف عامل ، فى ألف يوم . وتكومت كل الخلاصات نفاية حضارة تكومت فوق قلبى فأعجزته وشلته . وقالت له كلمات لا يعرفها إلا هو . وهو وحده دون كل القلوب التى ترى المجد فى الدخان ، المجد فى المصانع ، المجد فى دوران آلة العصر . . سر العجز التَّعَس . . سر ألف مطبعة نفثت رياءً ألف كاتب وكاتب تجمعوا حول الآلة يكشفون عهرهم ، وقوادتهم وابتذال كلّ معنى للإنسان فيهم . أمام النجاح . أمام الرضاء . أمام العلاوة السخية ، أمام الانتشار الواسع . . أمام الخدعة تدخل كل بيت . وكل عقل ، وكل وجود . أمام زحف الزيت الزائف إلى عقول أبنائى وبناتى . يثقل على أفهامهم وأفهامهن ، على وجدانهم ووجدانهن ، على عواطفهم وعواطفهن . . يا ليتنى أستطيع أن أصرخ بالكلمة فيهم وفيهن . ولكن أين أنا ؟ ؟ ومن أنا ؟ ؟ وما صوتى وسط الأوراق

الصفراء تغزو عالمهم ؟ عالمهن . . وتنتشر حوادث الاغتصاب . وتكثر حكايات الدعارة والشقق المفروشة . وجرائم بوليس الآداب . . وجوازات الأقطار الشقيقة . وتجار اللحم الأسمر الحزين ، تكفيه كسرة وقطعة جبن وبصلة ، وتقتله كلمات العاهرين الفاشلين الحاقدين المأجورين السفلة . . فتزين السراب وتصور جنة العهر المطعونة فى وجودها على شاشات السينما والتليفزيون ، وفى ميكروفونات الراديو وأقلام الكتّاب . . كتّاب العصر المأفون . . ياتعساً يا كم قال كتاب العصر المأفون ، أبطال العصر ، العاهرات قرة عين العصر ، والخونة أصوات العصر ومفكروه ، والليمونة لا يبقى فيها شىء بعد العصر . . ونحن نعيش برغم أنفنا بعد أن فرغت الليمونة من كل رحيق ، نعيش فى بطن الحوت مع يونس . . نردد الدعاء لا يسمعنا أحد . . فقد بلع الحوت الذى احتوانا فى جوفه حوتاً كبيراً وابتلع الحوت الكبير حوتاً أكبر ، وغاص بنا الحوت الأكبر فى أعمق أعماق البحر فلا يصل صوتنا أبداً . . لن يصل صوتنا أبداً . . فعند الشاطىء أسماك القرش تأكل وتؤكل . وتُفرض شريعة أسماك القرش ، الدماء النازفة تجذب الأنياب المتعطشة . . اللحم المبذول يستهوى الأسنان المسنونة ، والافتراس دوّار . فكلٌّ يفترس كل شىء ، وكل شىء يفترس كل حياة ، والحياة مفترسة منهوكة مبذولة ضائعة ، وما نحن ومن نحن إلا الافتراس المزدوج المبذول المتاح ، والدائرة تعقبها دوائر . ولا مكان إلا للدوائر الصاخبة المسكينة المنهوكة الضائعة . . ووسطها يسبح سمك القرش . . ووسطها يضحك سمك القرش ، ووسطها يسود سمك القرش . . .

يا أنت ؟ ؟ يا من نسيت من أنت ؟ ؟ يا من أضاعك الصخب الخبيث

المزرى قُل لى . كيف تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة . يا ضياعى إن غرست سن القلم فى عقلى . تريد أن تقول كلماتها فيه . أن تغرس كلماتها فى صميم بؤرته . أتجده كما تظنه وتحسه ؟ . . أبعد كل هذا يجد سن قلمها عقلا ينغرس فيه . تعساً . لا . العقل تاه قبل أن يأتى سن القلم . إن وجد فيه عطاء ووجوداً فهذا سر القلم وسر سن القلم ، وليس بالعقل بقية من عطاء . . أبداً . . يا صاحبتى من يدرى . . لعلك وأنت تبحثين عن مداد لسن قلمك فى قلبى ودمى . فى عقلى ووجودى . فى كلمتى وسرى ، لعلك . . نعم لعلك وأنت تبحثين عن مداد لسن قلمك تمسين الحقيقة فيبوح سن قلمك بكل ما أخفيته أنا عبر السنين والآلام والتّعسِ والعناء . . لعله يزيح الستر عن سر طال إخفاؤه وكبته ، عن حديث لم يعرفه أحد .

ولكن سن قلمك وهو يغوص فىّ ، يفجر شلالات رهيبة من ضوء ونور ، من حب وكراهية ، من صحة وعفن ، من موت وحياة . منى . أنا الذى ضاع . ومنى أنا الذى يمكن أن يوجد من جديد . . أتعرفين . .

ألف امرأة عرفت ولم تشرع واحدة قطّ سن القلم . ألف امرأة أعطت ولكنّ واحدة لم تكن تبحث عن المعنى والجوهر قطّ . . والوجود . . ألف امرأة فرشت وجودها أمامى ، ولكن امرأة منهن لم ترسل حين كانت بين يدى نبضها إلى نبض القلب . . نجواها إلى نجوى العقل ، سبحاتها إلى هيولا الوجدان . . فلم أعرفها ولم تعرفنى . ولم يعرفنى أحد . . لماذا جئت . . ؟

من أنت يا صاحبة السن المشرع . من أنت يا من تعرف سر الكلمة . من أنت يا من تحاسب الوجود . . وترصد الأنفاس ، وتعد نبضات القلب ؟ ؟

غريباً أنظر إلى عالمك. ، تائهاً أترك نفسى لدنياك ، ضائعاً أتلمس الهدى على يديك . يداك رقيقتان صغيرتان . ضعيفتان ، ما هاتان اليدان وما السؤال . . وما الحب . . وما المعرفة ؟ ؟ ؟

أبعدى يديك عنى . . أبعديها أرجوك . . فما أنا والحقيقة . أكره الحقيقة . أخاف الحقيقة . . أكره . . وأخافك أنت ، أخاف يديك . . بل أخاف يدك المشرعة بالقلم . . فى شفتيك عطر ألف كاهن عرف سر الحب والحكمة والفن . . فزجه كله فى كهنوته السحرى ليصنع عطرك أنت . أنت يا من كنت يوماً وتكونين ، يامن وجودك الحقيقة والخيال والحلم العطرى المغبش ، باحتضار الغروب الحالم المبهم السحرى . .

أنت . . يا من كتب الكاهن سرك فوق البردية . ثم أودعها التيمة السحرية . وطواها على لفائف التابوت لتظل سر الموتى الذى لا يعرفه أحد . . يا نفر . . يا ابنة حورس يا ابنة إيزيس . يا عبدة صنم مقدس ، يا إلهة كهنة المعبد السحرى فى أعماق منف المخفية . . أنت ، يا سحرى ، ياقدراً أخافه . . وأخشاه . . أبعدى سن قلمك عن قلبى . .

فقلبى نفث كل دمه منذ حين . ولم يعد فيه دماء ترضى سن قلمك الباحث عن مداد لكلماته . قلبى جف . . وما لك أنت والنبع الذى جف ، مالك أنت والمعين الذى نضب . مالك أنت والعمر الذى انتهى . .

يا أنت . الربيع أنت . الحب أنت ، الحياة أنت . . اغرسى سن قلمك فى قلب سوسنة حب ، فى قلب نجمة الصباح ، فى قلب زهرة الحقل الخضراء المثمرة المعطاء . أما أنا ، يا حلوة ، فانتهى . وجف . ضاع ونسيه الناس

والزمن . . حرام أن يبحث سن قلمك عن دم تجمد وتجلّط . ومات . . حرام أن يبحث سن قلمك من عقل أتاهه عن وجوده أنه لم يشبع ، فضلّ طريقه وضاع ، حرام أن يبحث سن قلمك عن وجدان بحث حتى كلّ وتعب ، عن الحب والعطاء والحرية ، حتى عن مداد يخط به عطاءه ليحكى عن سرى وسر وجودى . .

فما وجودى إلا ما فات ، وما كلماتها إلا ما هو آت ، وبيننا عمر ووجود وأمل ضاع ، وأحلام باهتة وتَعَس . .

وعفواً . . قد أحب فيك الشباب والإصرار والأمل .

وعفواً . . قد أحب فيك المغامرة والثقة والشجاعة .

وعفواً . . قد أحب فيك الإصرار والوجود والعقل . . ولكن ما أنا وأنت ؟ . . الغد يشرق وأمس يضيع . . وكل لحظة غروب يودّع فيها رع مملكته . ولا يبقى منها إلا الظلال والأشباح والهمسات البعيدة الخافتة . . لملمى ياحبى بقاياى . إن كانت ما تزال لى بقايا ، لملمى الأحزان والهزائم والتَّعَسَ ، لملمى أحلام العزة والعطاء والفن والإصرار . . لملمى ما بقى منى . .

ولم يبق منى إلا الأشلاء فقط . لن يفوز سن قلمك النابض الحلو بدم يصنع حلماً ، يشيد قصراً ، يخلق نغماً ، فما فىّ أنا قد مات منذ زمن . . وأنت يا أنت تأتين آخر الزمن .

هل ترضيك يا طموح الشباب والفن والجمال والثقة ، هل ترضيك عصارة باهتة لإنسان مضى وولى ولن يعود إلا ذكرى . . يا تعسى . .

كيف تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة . . ويا ضياعى إن

غرست سن القلم فى قلبى المرهق الذى يبس فيه معنى الحب والعطاء والكلمة ، فغدا صحراء التيه . . والربع الخالى لا شىء فيه إلا الرمال السافحة .

* * *

كيف يا أنا تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط به الكلمة ، يا ضياعى إن تبحث عن مكان لسن قلمها فى وجودى . ضاع وجودى وضاع سن قلمها إن بحث فى كلمتى . أو فى عقلى . لن تجد غذاء سن القلم ، لن تجد زاد رحلة القلم فلم تبق إلا البقايا والنفايات وأشباح الماضى الباهتة .

يا أنت حتى كلمة الحب تبدو عجوز مرهقة على شفتى . . فهى عند عتباتك تقف بائسة متسولة تنتظر الرحمة . . أو هى عندى غناء مريض تقطر فيه قسوة العمر والحرمان ، وتشبث مريض بالبقاء ، برغم الزمن ، وبرغم إحساس العبث . .

فأنت أنت تبعثين الحياة ، تفرضين الدفء ، تعطين للوجود معنى تنسين حتى مر العمر ، وضياع السنين ، ولا زلت أسأل نفسى وأسألك ، كيف تمسك هذه اليد الرقيقة بالقلم لتخط الكلمة .

حلم

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل يأيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، لكم دينكم ولى دين) .

صدق الله العظيم

« سورة الكافرون »

ليس هناك اتزان ، فقد الكون الاتزان واختلط النجم القطبى بالزهرة بالمريخ ، وصاح القمر وخاف ، وجرى فابتلعه المحيط ، ونام العالم كله فى دنيا من الظلام والصمت الأزرق اللعين . .

مزدك كان إلهى يوماً ثم خنسو وعشتر ثم رضيت بالعجل أبيس ، وفجأة عرفت أنه إله السماء الولود ، وأنه حامى الخصب فكفرت به ومددت سكينى إلى عنقه فجززتها ، وأرسلت لحمه إلى المصانع فخرج علباً أنيقة حمراء ، وتقيأت إلهى يوم شربت الخمر المغشوشة مع لحمه المحفوظ العطن . ، ونسيت أن أغلق مفتاح الراديو فظلت فيروز تغنى والصافى وواحدة صوتها كالعفن فكسرت الراديو . . وهرعت إلى الشارع أختبئ وسط الناس من انتقام أبيس ، أعنى خنسو . . أعنى عشتر . . بل لعلى أعنى آمون رع نفسه صاحب الزورق الباهت

الغارق أبداً فى دنيا الظلام . .

تعساً . . أكلُّ آلهتنا يغرقون فى الظلام ؟ . . وكفرت . . وجدفت . . وأدخلونى السجن . . وهناك نمت . . أجل . . من جديد نمت . . فأنا دائماً أنام فى انتظار الصباح ، والصباح لا يأتى أبداً . .

وتبحث أشعة الشمس الوليدة عن بيتى ، وبيتى ضاع . . ليس لى بيت . . صنعته فوق الريح واشتدت الريح يوما فى يوم عاصف فاغبرت السماء ، ولم أعد أره حتى ولا فى لمحات السحاب الموهومة ، تصنع بيوتاً من ضباب . . ليس لى بيت . . صنعته يوماً فوق أشعة القمر ، ودار القمر دورته وتضاءلت أشعة القمر وتقلصت ثم ماتت ، ومات بيتى مع بقايا أشعة تموت . .

ليس لى بيت . . يوماً صنعته من زبد الموج الفائر ، ثم هدأ الموج . . واستقر البيت مزرقراً كالنغم فوق مياه البحر الهادئة تسبح فى حلم أبدى غريب غرير . .

ومن البيت خرج السمك المسحور ، نصفه إنسان ونصفه سمك ، وعندما وصل إلى الشاطئ تحول إلى حجر . وصرخت فهاج البحر وماج ، وعلا غضبه على صوت صراخى فأبرقت السماء وأرعدت وهطل المطر وابتلع الموج الهائج البيت ، فضاع فى اليم وغاص إلى أعماق مدينة النحاس المسحورة وسط المحيط الملعون . . ليس لى بيت . . يوماً غزلته من شجرة القطن ورصعته من إفراز دودة القز ، ثم زينته بعطاء أصداف الخليج . . وازدهر آمناً فى حضن الشجرة الفارعة المقدسة . . التى احتضنت قبلى ألف قلب حائر تعس ، ولكن الشجرة امتصت ما فيه من دماء ثم ازهرت ورداً أحمر قانياً ، تضعه العذارى زينة فوق الأثداء المشدودة ، وفوق الموائد ليلة حب موعودة . . ثم أقبل الحطّاب وضرب

بفأسه الشجرة فنزف قلبي دمه الباقي وناح . . ثم ضرب الشجرة فاهتزت ومالت ، وتمزق بيتي وحملته الرياح إلى مدينة النحاس . . وصرخ البوق المرصود ، وصاح الديك المصنوع بالحكمة فوق السور ، فتدافعت السهام السحرية تمزق أستار بيتي وتكشف عريه . . وتداعى متحطماً . . أشلاء . . أشلاء . .

وبحثت عن قلبي بين الأشلاء والمِزَقِ . . ولم أجد إلا بقايا سيجارة محترقة وقطرات في كأس مكسورة . . وضاع حلمي الغريب . . عن بيتٍ مّا في مكان ما ، تحت سماء ما ، في دنيا إله ما . .

ودار جسدي ، حملته الرياح ودارت ، وارتفعت ساقاي عن الأرض ، تشبثت بأطراف الجبال ، والتصقت بنتوءات الأودية ، ولكن الريح اقتلعتها ودارت بها ، ودار رأسي ، وفقدتُ الاتزان ، وفقد العالم كله حولي الاتزان ، وأخذت أدور وأدور ، وامتزج ألف بيت لي بألف بيت،وذابت السُّحب السوداء في لجة من أمواج البحر العالية . وأكل المد كل شيء ، ثم انزاح ، وحين الجزر تراجع القمر فاصطدم بالزهرة والمشترى وامتزج بهم جميعاً النجم القطبي . . وغدا الكلُّ عجينة في يد عجّان مجهول في بلد مجهول يصنع رغيفاً غير ناضج لصبية جوعى في قرية مجهولة . . إلهها ملعون . . نسيها ومات . .

المحتويات

المثلث الدامى	٧
الزنزانة	١٥
فى الطريق	٢١
الكلب	٢٥
وناحت دون قبر	٣٣
يا على	٤٥
الموردة	٥١
الهمسات البعيدة	٦٣
أين الحب	٦٩
الصمت	٧٧
خطاب إلى صديق	٨١
اليد والقلم	١٠١
حلم	١٠٩

رقم الإيداع	١٩٧٩ / ٥٣٣٧
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٨٩٢ - ٧

١٦١ / ٧٩ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)